

الفصل الثاني عشر

التفكير الحميري:

في نهاية الفصل السابق بينت لكم يا أحبتي لمحة يسيرة، عن سبب اختيار هذا العنوان الغريب، لكنني أردت أن يكون توطئة لفهم أحوال الخمسين سنة التالية، والتي يركز معظمها على سرد من العم زيد، بينما كان ما سبقها يستند على سرد من الجد الأكبر (علي) وولده عبدالله رحمهم الله. لقد كان عم والدي (زيد بن عبدالله بن علي) على قدر جم من الورع والتقوى منذ نعومة أظفاره، ولديه الكثير من المعارف والعلوم في البستنة ورعاية الدواب والدواجن، وفي الأدب والتاريخ والحساب والفلك والهندسة والطبابة، مع قدرة عضلية متفوقة وذكاء متوقد وفكر مستتير. يضاف لذلك أن الله أنجاه من أسباب فتنة الرجال، سواء من الخمر والنساء أو حب المال والمناصب العليا والأولوية، فقد كان شديد التواضع للصغير والكبير. لا يبخل بماله وجهده ووقته ومعرفته للجميع، واصل رحيم لقرابته وجيرانه وعابري السبيل وحتى لبهائمه، عرف عنه من تعامل معه الأمانة والدقة والحرص. لكن لا يسلم أحد من مأخذ يستاء منها البعض، وعلى رأسها الحدة وغلظة القول والمسارعة في التصرف، بخاصة من يخطئ معه في القول أو الفعل، وهي صفات بدأت مبسطة ثم تزايدت مع تقدمه في العمر. وأسرد لكم حادثة جرت له مع شخص كان بينهما مبايعة، ولما اشتدت الكلمات بينهما في مشهد من أهل الحريق، قام الرجل غاضباً وهو يتمتم أن العم زيد ناقص الفحولة، ويحسن فقط تلقيح النياق وليس زوجاته، فاستشاط العم حقناً عليه وأمره بالرجوع ليفهم ما قاله، لكنه خصمه أدار له ظهره وهرول بعيداً، فركض العم وراءه ومعه أحد خدمه يقال له "قنيعر" مفتول العضلات، فأعادوه للمجلس وهو يوبخه أن الناس قد سمعوا قوله ولا بد أن يسمعوا رده أو سيربطه ويضربه. ثم أمر خادم آخر أن يحضر له "خُميس" على عجل، عاد الرجل يجر حمار غير ضخم ربطه عند عريشة المجلس، ثم صفر له فأدلى إحليله فقال للخصم سننزع سراويلك لنرى أيكما أكثر فحولة، فضحك الجميع وارتعد الحريقي اللئيم، وهو في قبضة قنيعر، ثم قال العم إن خُميس يلقي كل سنة أكثر من خميس أتان، فهل تقدر "يا زعفة" أن تكون مثله؟ هز الرجل رأسه نافياً فأشهد العم عليه الناس. ثم أضاف بالقول إن بنو آدم ليسوا بفحولتهم ولكن "بأصغريهم القلب واللسان" وأنت ليس لديك قلب تدرك وتفكر به، بل ما لديك لسان قدر مشابيه كما قال سبحانه "إن أنكر الأصوات لصوت الحمير" ولو أنك تفكر مثل خلق الله لما بلغت بك البذاءة أن تتحدث بالسوء، لكن تفكيرك مثل هذا الحمار أو أقل. وحادثة أخرى تبين ما كان لديه من غلظة هي في محلها، فقد اقترض منه أحدهم دراهم، ولم يسدها لما حل الأجل بدعوى أنه معسر، وذات مساء طرق بابه بعنف، ورفض دعوته "ليقلط" ووبخه لمماطلته الشائنة، فتعذر الرجل بالعسر فأفهمه أنه في العشية قد استلم أكثر من

مائتي ريال، وإذا لم يسدد ما عليه فوراً "فسيصمخه بما في يده" لأنه كاذب مماطل، فسارع الرجل للسداد. ونبهه الجد إن عليه مستقبلاً إذا أراد قرض ألا يأتيه ابتغاء الحسنى، بل يذهب لصرافين الحلة ليدايئوه "العشرة بثلاثة عشر" على الحول. نعم لقد كانت فيه حدة وشدة على العابثين والمستهزئين، لكنه مليء بالحنان والعطف على القريب والغريب، يمد يد العون ويقدم النصح للجميع، ولا يبخل بماله وجهده وفكره ونصحه، وكان الكثير يقدرون ذلك فيه، بل يسميه البعض "الخزانة الوافرة" حيث يجدون الفكر والنصح والتوجيه والدرهم، وعند الشدائد يقدم للمحتاج السلاح والذخيرة، لا للعدوان بل للحاجة الدفاعية أو القنص غير الجائر.

كان العم زيد يرحمه الله يهوى اقتناء أحدث أصناف السلاح، وكان في أحد بيوته خزائن السلاح والذخيرة، ورغم أنه يُهدي أو يبيع البعض منها، إلا أنه لم يكن يتاجر فيها، مثل بعض أهل الحلة الذين اتخذوا التعامل فيها حرفة، ليتكسبوا منها المال ويبيعوها لمن يدفع أكثر بخاصة، أثناء الملمات والخطر. وتبين ذلك لما هجم بعض البغاة المجرمين على حي آل ختلان وقتلوا بعضهم، فوزع السلاح على الجماعة ليدافعوا عن محارمهم وحلالهم لعدة أشهر، حتى وصل الملك عبدالعزيز رحمه الله وقضى على المعتدين. ويجدر بي الإشارة أن في حياته انقضت البنادق أم فتيل، والتي كانت تعباً من أعلى انبوبها (خشمها) بالبارود، وتوضع فيها قطعة معدن بحجم لوزة البندق أو عدة قطع أصغر، ثم يشعل الفتيل في طرفها الآخر فينفجر البارود ويقذف المعدن صوب الهدف. وكانت البنادق ذات الفتيل صعبة التعامل خاصة في وقت التحام المعارك أو في المطر، فهي بطيئة التشغيل قريبة المدى وضعيفة الأثر، لذا فقد طورت دول أوروبا ثم أمريكا زمن حربها الانفصالية، بندق لا تحتاج فتيل اشعال ولا تعبئة بارود. حيث جرى تصنيع ما يسمى "ظرف القذف" أو ما يسميه العامة في الحريق "الفشكة" أو الخرطوشة، وفي حالات أخرى تسمى الرصاصية، وهي تتكون من ثلاثة أجزاء الأول هو وعاء اسطواناني متوسط حجمه مثل الخنصر، يعبأ بمسحوق سريع الاشتعال، والجزء الثاني أسفل الوعاء وهو من مادة كيميائية رقيقة، تسبب شرارة اذا طرقتها إبرة الزناد، والثالث هو المقذوف الذي يقع أعلى الوعاء، وهو ينطلق بسرعة ودقة فور اشتعال المسحوق. يساعده على ذلك وجود حزوز داخل أنبوبة السلاح، التي تسمى عند البعض السبطانة يخرج منها المقذوف وهو يدور على نفسه، وعند مغادرته الفوهة تحدث خلخلة هوائية، تسبب صوت فرقة أقوى من صوت انفجار مسحوق العبوة. لقد انتشرت تلك البنادق الحديثة بسرعة كبديل لأم فتيل، لكنها ليست كلها بنفس الجودة، وقد كان العم زيد مغرم باقتناء أشكال عديدة منها، ويحرص على جلب كل جديد مهما كلفه الأمر. كان يرحمه الله يجلب أنواع مختلفة بالشراء من تجار السلاح في الأحساء، إلا أن السوق الكبرى لها كانت في مسقط، التي تصلها السفن الضخمة عابرة البحار المحيطة، تجلب مختلف أنواع الأسلحة النارية والذخيرة، من أقاصي الأرض وأدناها في أوروبا وأمريكا. والسلاطين هناك (آل بوسعيد) يوفرون ما يسهل

التجارة فيها للجميع، ويفد لذلك السوق مشتررون من بلاد العرب وفارس والهند وبلاد الزنج بل ومن التُّرك. كما كان العم يحصل على بعض السلاح من جامعي أسلاب النزاعات والحروب، والبعض الآخر من مصادر مجهولة تباع لمن يدفع. وقد كانت الملكة فيكتوريا تحظر بيع السلاح المتطور للنخاسين، حيث كانت تحارب تجارة الرقيق، بينما تستعبد عساكرها شعوباً كاملة وتمتص خيراتهم، كما في الهند الكبرى وجنوب أفريقيا وأمريكا، وكذلك تفعل بقية إمبراطوريات أوروبا مثل فرنسا والبلجيكا وهولندا وإسبانيا. لقد كانت في عُمان ومخا أسواق لبيع العبيد، المستقدمين من شرق أفريقيا وغرب الهند، لذا وقعوا تحت حظر فيكتوريا على السلاح المتطور، لكن المهريين يلتفون على ذلك بأساليب عدة، لكنها ترفع سعر البنادق وطلقاتها الحديثة.

كان والدي وأبناء عمومته وأخواله، يحبون زيارة العم زيد حيث يشرح لهم خصائص كل سلاح، ويبين الفرق بينها في المدى وسرعة الرمي، كما يوضح لهم الأجزاء المختلفة في كل بندقية، مثل غرفة الإطلاق (النار) وطرق تلقيم الفشك، وحركة إخراج الظرف الفارغ بعد الرماية. مع شرح دقيق للزناد والديك وأسلوب ثني البندقية (من السبطانة للقصبه) وكيفية تنظيفها وإخراج الفشكة اذا تعثر إطلاقها وهي داخل غرفة النار، مع شرح طرق التصويب بواسطة رأس الذبابة الموضوع أعلى الفوهة. وفي بعض الحالات يخرجون في نزهة لبضعة أيام، للتجول في تلال طويق شمال شرق أو جنوب غرب الحريق، للتمرن على استخدام بعض البنادق، بالرماية على نصب خشبي أو لصيد أحد الوعول، وشواء لحمه بخاصة في منطقتي عولان وعلية. لقد كان والدي يحظى من عمه (رحمهما الله) بعناية خاصة، وذات مرة في مطلع القرن العشرين، وقبل أن يبلغ الخامسة عشر سنحت له الفرصة لدخول إحدى خزائن السلاح، حيث بين له عمه الفروق بين البنادق المختلفة. فشاهد واحدة منها انقرضت من الاستخدام آنذاك، وهي أم فتيل التي يدك البارود في انبوبها بالمرجس (ملعقة أو خاشوقة معدنية وليست خشبية) ثم تشعل الفتيلة بلهب خارجي. وأخرى مشابهة لكنها متطورة ومزال البعض يستخدمها، حيث يوضع البارود في فوهتها العليا بقمع، لكن اشتعاله ليس بالفتيل بل بزناد قوي يحدث شرارة، ويمكن إطلاقها بسهولة إذا توفر الحرص حتى في المطر، ومنها صنف له سبطانيتين (انبوبين) كل منها يثور على حدة وتسمى أم روحين. ثم عرض العم عليه بنادق تستخدم ذخيرة الفشق أو الرصاص، وهي من نوعيات مختلفة وصناعات متنوعة، معظمها تدخل الرصاص فيها من أعلى، لكن لديه واحدة نادرة ومختلفة، حيث تدخل الطلقة من أسفل ويسميتها (أم إصبع) لكنها ليست جيدة. ثم شاهد بنادق في حالة رديئة وعلاها الصداء، علم ان احداها يقال لها المشوكة مصنوعة في روسيا، وأخرى مشابهة لكنها عثمانية وكلاهما رديء الجودة، حيث تعلق الفشكة في بيت النار أحيانا أو تسقط قريبا ولا تصل للهدف. وأخرى يقال لها (عصمانلية) متوسطة الجودة، قدم الترك الآلاف منها "الولد الجنازة ابن رشيد" اثناء

هجومه على الملك عبدالعزيز في جراب سدير، وبيعت أعداد كبيرة منها بعد ذلك بأسعار زهيدة.

بعد ذلك أخذه إلى غرفة محكمة الاغلاق قال إنها "السلاحليك" كما يسميها الباشا، وتوجد بها احدى عشرة بندقية مرتبة الصف لامة، طويلة الانبوب المعدني صلبة الخشب، تبدو متينة ودقيقة الصنع. بعضها مرتكزة على رف، والبقية معلقة على الحائط لمنع تلفها لو دخل المطر للمكان، كما توجد صناديق معدنية وخشبية، فيها كميات وافرة من ذخيرة البنادق. لاحظ والدي اختلاف احجامها، فالبعض منها طويل سماه العم (الشبرية) وهي تقل عن شبر الطفل، لكن الأعراب سموها كذلك ظانين أنها أقوى في الرمي لكنها كثيرة الأعطال، وبارود الفشكة يصدر دخان كثيف مع ضعف زخم الدفع. ثم أنزل بندقية منها ذات مظهر جيد ومختلف عن البقية، قال إنها من أجود أنواع الموزر، أو ما يسميها البعض موزة أوروبية الصنع، وهي نادراً ما تتعطل أثناء الرماية، لكنه يلزمها دوام العناية والتنظيف، وتقلدها مصانع في روسيا وأمريكا. ثم بين له ان الموزة هي ذلك الكائن الحي، الساكن في داخل صدفة اللؤلؤ، ويطبخه الغطاسون كبديل للحم السمك، وبعضهم يلتهمه حي مع قليل من ماء البحر المالح. ثم بين لوالدي ان البعض يدعي بعلاقة الموزة بتكون اللؤلؤ، عندما تدخل حبة رمل في الصدفة فتفرز الموزة سائل يحيطها ويحمي من خطر دخولها للصدفة. قال والدي لعمه أن أحد أخواله الذي يغوص في البحر الشرقي، ذكر له أن اللؤلؤ يتكون عندما تسقط قطرة مطر، في الشمس الحارة على الصدفة أثناء شربها الماء الحلو، الذي ينبع من قاع البحر المالح. فرد عليه ان ليس لديه خبر عن ذلك، لكنه نبهه انه شاهد في مطرح (عُمان) شجرة جاءوا بها من شرق الهند، لها ثمرة رفيعة طويلة بيضاء تشبه موزة الصدف، لكنها لا تنضج بسهولة فتبقى جافة غير حلوة الطعم، والبعض هناك يطحنها ثم يعجنها ويخبزها وتقدم طعام للخدم أو الدواب. سمعت أحد الحاضرين في مجلس أبي، يقول ان الموزر تحريف لاسم بندقية نمساوية، على اسم أمير أو فنان عندهم يقال له موزارت. ثم توجه العم نحو الحائط المقابل، الذي عليه ثمان بنادق ذات شكل يشبه الموزر، لكنه يبدو أدق صنعة ومعدنه لامع طويل، إحداها يركب عليه ناظور زجاجي صغير، لا يزيد طوله عن أناملتين يساعد على دقة التصويب. وأوضح ان تلك هي "شيخة البنادق المرتينة" ويسميها بعض العوام المورته، تصنع في عدة بلاد بجودة متفاوتة، أطيبها الانقليزية وان لديه خمس موارت هنرية، وهي أفضل طراز على الاطلاق. ويوجد منها نوع يقال له مارتيئة صمعا قصيرة وأقل جودة، وهناك أخرى تسمى كنده تصنع في شمال أمريكا، وطراز مطور ورد في السنين اللاحقة يقال له أم خمس، لها خزانة صغيرة أسفل بيت النار يحوي خمس طلقات، ويقوم الرامي بتحريك مهماز معدني معقوف بيمناه بعد الاطلاق، فيخرج الظرف الفارغ، وعندما يعيده إلى مكانه يقوم الزنبرك الحلزوني السفلي، بإدخال طلقة أخرى من المشط في حجيرة الإطلاق، مما يمكن المقاتل من إعادة الرمي بشكل سريع. شعر والدي وعمه بضيق

النفس داخل خزانة السلاح، لما تحويه من غبار وبقايا البارود المتطاير من عبوات الذخيرة، لذا سارعوا لمغادرة المكان وقفل الرتاج بإحكام. كان العم زيد حتى بعد تقدمه في العمر، قوي البنية نشيط الحركة صافي الذهن، لكنه يعاني في سنواته الأخيرة من تحسس في رثتيه، بخاصة في فصل الربيع عند كنة الثريا، وفي زمن خرف النخيل عند نجم الصفري، حيث يصيبه سعال وحمى ودوار وإنهاك القوى لبضعة أيام، وكذلك كان أبي يرحمهما الله.

ذات يوم دعا العم بعض القرابة لنزهة في الجبال، وأحضر معهم عدد من العمال والدواب ومستلزمات السفر لعدة أيام، وأعطى والدي مرتينة قصيرة ومارسوا الرماية في "شعيب الخضر" جهة أعلاه، وتمكن العم من جندلة وعل ضخم بمارتينة هنريه من على بعد أكثر من مائتي خطوة، وأرسل أحد الخدم مهرولاً بشفرته لينذره حيث كانت اصابته غير قاتلة. ثم لكي يثبت للجميع قوة الطلقات الضخمة والطويلة، أمر أحد العمال أن ينصب حجر فوق صخرة تبعد مائة خطوة، ثم صوب سلاحه وأطلق رصاصة من مورتينته الأصلية، فتفتت الحجر وتطايرت شظاياه في الهواء. والعادة أن يكون النُصب من خشب أو فخار، فقال أحدهم لو أصابت هذه الطلقة رأس الوعل، لتطايرت عظام جمجمته أسرع من هذا الحجر. ثم تفاجأ الجميع لما أخرج العم من طيات ثيابه فرد ذو هيئة غريبة، وبين لهم أنه أبو محالة سداسي الطلقات امريكاني. المعتاد أن يكون الفرد سلاح شخصي ذو طلقة واحدة، يمكن اخفائه عن الخصم إذا رغب حامله، لكن الفرد ذو الطلقات الست لم يكن معروفاً لهم آنذاك، بل يعرفون الفرد العثماني الخفيف ويسمونه الغدارة. لقد كان مظهر ذاك السلاح غير معتاد بخاصة الأسطوانة الحديدية الدوارة، التي تشبه البكرة (محالة حبال البئر) وتوجد بها ستة ثقوب، يوضع بداخل كل منها رصاصة، وعندما يجذب الرامي الزناد يرتد مهماز معدني للخلف، ولما يصل أقصى حده يقوم الزنبرك (حلزون أو سستة) بإعادته لموقعه ليقوم بحركتين متواليتين، فهو يطرق بإبرته النهاية الخلفية للرصاصة فينطلق المقذوف، ومن ثم عند تراجعها يحرك الأسطوانة لليمين، بحيث تصبح الرصاصة التالية في مواجهة المهماز، مستعدة لإطلاق المقذوف التالي. أنهى العمال طبخ بعض اللحم، وجهزوا البقية ليأخذوها معهم مجففة، وتحادثوا في أمور السلاح والذخيرة، وتناقشوا بشأن أمور البلاد والنزاع الجاري بين أمراء من البيت السعودي، سببت سيطرة مأمور الدولة العثمانية في حائل على نجد. لقد كان العم زيد واضحاً في رفضه الخنوع للغرسة التركية، مع حرصه على بقاء الخلافة العثمانية قوية، لتتمكن من الدفاع عن بلاد العرب والحرمين الشريفين خصوصاً. مع تذكيره الدائم بما واجهه أسلافه قبل أربعة قرون، من هجمة صليبية برتغالية غادرة نزلت في القطيف شرقاً وجدة غرباً، ولولا التدخل العثماني الفعال ضد الغزاة لكانت الحال سيئة للغاية. كان البعض يؤيد نظرة العم، لكن الكثير عارضوه مذكرين بما قام به عساكر العثمانية، سواء طوسون

أو إبراهيم ثم إسماعيل ومن بعدهم خورشيد باشا، الذين أهلكوا الحرث والنسل في البلاد، وقتلوا ونهبوا وأحرقوا ما يتجاوز ما كان الصليبية يعملونه.

أستأذنكم أيها الأحبة الحريصون على استخلاص العبر، من سيرة أسلافكم والاستتارة بها لسبر ظلمات حاضرتنا المرتبك، لكي نكسر التسلسل الزمني للسرد، فننتقل من مطلع القرن الرابع عشر الهجري، إلى أواخر سبعينات ذلك القرن. فقد سمعت في بعض جلسات ديوانية منزل والدي (رحمه الله) نقاش حول تلك الأمور، حيث قال أحد أعضاء البعثات الدراسية للخارج، إن قلة الإدراك والسذاجة لم تقتصر على القرى النائية مثل الحريق، بل تجاوزتها لتشمل مدن كبيرة في زمنه ذلك. ومثل لذلك بما يزال البعض يظنه عن الدولة العثمانية، وإن سلاطينها من سلالة ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان، ويخلطون بينها والدولة العباسية التي من سلالة العباس عم النبي عليه الصلاة والسلام، حيث بلاد الترك فتحت زمن عثمان. وتلك أراض واسعة بعضها خصب وكثير منها قاحل، تسكنها عدة شعوب وقبائل مختلفة متناحرة، منها القوقاز والكزخ والطاجيك واليزبك والقرقز والخوارزم، وكثرة اضطرابات تعود للتناحر بين فئاتها، ووقوعهم بين ثلاث دول كبرى هي فارس والصين وروسيا. وكانت بلاد بين نهري سيحون وجيحون تسمى طر كستان، وأهلها يقال لهم "طورانية" وهم يدينون بالوثنية، بخاصة من يسكنون شرق بحر الخزر، أما الروس في شمال غربه ففيهم نصارى، وجنوبه أسلموا زمن عمر، ولما دخل هؤلاء أيضاً الإسلام سموهم "ترك ايمان" أو تركمان وأرضهم تركستان. لقد نبغ من بين أولئك كثير من فقهاء الإسلام على رأسهم صاحبى الصحيحين (البخاري ومسلم) وشيخ مفسري القرآن ابن جرير (طبرستان) والحاكم النيسابوري، والمئات من علماء المسلمين على مر العصور، سواء في الطب أو الحساب والكيمياء والضوء والطبيعات. لكن ما قربهم للحكام العرب هو قدراتهم الحربية، فبعد أن اعتمد بنو العباس على الخرسانيين لإسقاط الدولة الأموية، بدلوا اختيارهم لما شعروا بغصة القوم بعد اغتيال أبي مسلم ثم البرمكي. لذا توجه المأمون (ابن التركية) في نزاعه ضد أخيه الأصغر الأمين (ابن زبيدة الهاشمية) ونزع الخلافة منه، مستعينا بجحفل من العساكر التركية المخصصة لولايتيه، وبذلك وجد القوم موطئ قدم للحصول على السلطة في بغداد. لكن ابن المتوكل حصل على الخلافة بغدرة دنيئة، رتبها له أرادل من الترك يقال لهم الديلم، عاثوا في الأرض الفساد فسلموا أعين الحكام، وأدخلوا المسامير الساخنة في أذانهم وأقوهم في مزارع بعيدة عن بغداد، يصيحون أنهم من الخلفاء فيستهزئ بهم الصبية والسفهاء ويحصبونهم بالحجارة. وأنداك كان ابن طولون أول تركي يحكم بلد عربي، ثم لما جاءت فتنة القرامطة زمن البويهيين (فُرس عجم) وقتلوا الحُجاج عند الكعبة ونزعوا الحجر الأسود، ونقلوه للخارج ثم للأحساء ليحج الناس اليه، ظهرت طائفة من التركمان (سلاجقة) حاربتهم وتولت حماية بغداد. لكن الأعمال الهمجية للقرامطة (خوارج

الشيعة الفاطمية) في بيت المقدس ضد النصارى، ألهبت مشاعر أوروبا على "السراسين الملاحدة" الذين أساءوا لمسقط رأس ابن الرب!! كما يدعون، فشنوا حملات صليبية دموية على الشام، وهزموا سلاجقة الترك واحتلوا بيت المقدس. لكن بعد سنين ردوا عليهم وهزموا الصليبيين في منكرت، وبقيت الحرب سجال حتى تمكن الزنكية بتكوين جيوش سنوية فيها أكراد، وطرد صلاح الدين الأيوبي من القدس. ولم يتسنى له ذلك إلا بعد أن ذهب مع عمه شيركوه لمصر، وطهروها من دنس الروافض الفاطمية، وورث الأيوبي حكم مصر والشام والحجاز، وأقام دولة تعاقبت على حكمها ذريته لثمانين سنة. حتى هبت عواصف "الموت القادم من الشرق" ودخل المغول وأعاونهم من تتار الروس العراق والشام، وعاثوا فيها الفساد والقتل فصارت دجلة حمراء من الجثث، ثم سوداء من حبر الكتب التي ألقيت فيها. أثناء ذلك كان السلاجقة قد انكمشوا في وسط الأناضول، وأسسوا عاصمة إمارتهم في قونية، لكن أتراك آخرون (الشراكسة) جاءوا بأعداد غفيرة للشام ومصر، هاربين من الزحف المغولي على بلاد ما بين النهرين في تركستان. وعمل رجالهم في الخدمة العسكرية عند الأيوبيين، ونسائهم عملوا خدم في المنازل، والفتيات أمسوا محظيات عند الكبراء، وبهذا بدأت نشأت دولة المماليك في أعقاب أحداث أيبك وشجرة الدر، الذين تمكنوا من إيقاف زحف المغول على مصر.

في تلك الحقبة جرت أربعة أحداث هامة، مهدت لنشوء الإمبراطورية العثمانية، كان أولها دخول كثير من المغول والتتار في الإسلام، وحسن إسلام أكثرهم فساعدوا على زيادة انتشار الدين الحنيف شرقاً، نحو بلاد الملايو والجاوة وشيدوا صروح حضارية (تاج محل والمدرسة الصولتية) تشهد برقيهم بعد الإسلام عكس همجيتهم قبله. والحدث الثاني هو بدء تساقط إمارات طوائف المسلمين في غرب أوروبا، حيث أدى التناحر بينهم لهزائم متكررة، جعلت الأيبيريون يستعيدون أجزاء واسعة من الاندلس، ويطردون المسلمين واليهود لما وراء البحر. والحدث الثالث هو أن ممالك مصر استضافوا قرابة آخر خلفاء العباسيين، الذين كان معهم ما يقال إنها التراث النبوي، من الجبة والشعرة والسيف والنعال، فمنحهم ذلك شرعية فرض نفوذهم المعنوي على أكثر المسلمين، لكنهم لم يدعوا قط أنهم ورثة الخلافة النبوية. أما الحدث الرابع فهو انكفاء السلاجقة على أنفسهم، ورضوا بالقعود في وسط الأناضول يشاغبهم عدوهم اللدود أهالي كردستان. ففي عاصمتهم قونية أثناء القرن السابع الهجري، كانت حشود النازحين من أهوال الغزو المغولي في القرن السابق، قد أخذوا في الاستقرار والتعايش مع أهل الدار، بل بلغ بعضهم شأو عظيم في الإمارة السلجوقية، الذين لم يميزوا بين عشيرة وأخرى، بل قدموا الكفاءة والإخلاص على الأصول العرقية. وأصبح الوافدون لقونية يحصلون على فرص متكافئة، بغض النظر عن العترة التي ينتسبون لها في مناطق وسط آسيا. وفي تلك اللحظة المفصلية تخلقت النطفة الأولى للدولة العثمانية، فلأمر ما حدث اضطراب جنوب الأناضول مع الأكراد، فأرسلت قيادة قونية سرية

مسلحة للسيطرة على الوضع. وتولى رئاستها رجل اسمه سليمان قندوس، يتسم بالشجاعة والإخلاص لرئيسه والإقدام، الذي قيل فيه "الجود يفقر والإقدام قتال" وقد طارد سلمان وجنوده الأكراد العصاة، حتى وصلوا حدود الشام مع الأناضول. وبحيلة ماهرة استدرج الأكراد تلك السرية إلى منطقة ضحلة عند نهر الفرات، يعرفون مسالكها ويجهلها عدوهم، فغرق سليمان وجنوده وبصحبته أكبر أولاده. ولما شعر زعماء السلاجقة بالرتاء لفاجعة تلك الأسرة، قرروا تعيين ولده الثاني ليكون قائد فرقة كبيرة، بغض النظر عما إذا كان من أصول سلجوقية أو طورانية (تركستانية) أو أفغانية، واسم ذلك الابن ارطغرل بن سليمان. الذي بدوره اتسم بالشجاعة مثل أبيه ومزيد من الحكمة والروية، وأخذ يتجه لمناوشة القبائل والإمارات الواقعة غرب وشمال قونية، واخضع بعضها لنفوذ عاصمة السلاجقة. ثم درب ولده عثمان ليتولى القيادة، فأثبت قدرات متميزة تفوق بها على مكانة أبيه. وتمكن من اقناع رؤسائه للاقتراب من سواحل بحر مرمرة، حيث تبعد القسطنطينية عاصمة إمبراطورية بيزنطة (150 كم) مسيرة يومين، وأقام فيها إمارة بورصة (صوكت) مستغلا الوهن الذي أصاب السلاجقة والبيزنطيين على حد سواء، ثم قام ولده طرخان بتولي الحكم فيها، وبتسمية عشيرته "العثمانيون" تكريماً لذكرى والده. وما جرى بعد ذلك تاريخ مدون، يتضح منه كيف تمكنت ذرية عثمان بن ارطغرل بن سليمان القندوزي، من انشاء أكبر امبراطورية إسلامية، تمتد عبر القارات الثلاث في العالم القديم، ولا علاقة لها بالخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

لما صمت الرجل الدارس لبرهة، لم يتمكن من ارتشاف فنجال الشراب، إلا وقد بادر أحد الحراقى البسطاء بسؤاله عن كيفية حصوله على تلك المعلومات، واستفسر عما إذا كان حاضر تلك الأحداث، وسارع أحد قرابته بالقول "إنها من قراطيس يزقلبونها ولا ندري من أين جاءت" ثم قال أحد الجهلاء هذه أمور لم نسمع بها من قبل. فرد عليه أحد الجالسين ألم تسمع بعلم التاريخ، وسأله عن كيفية معرفته لنواقض الوضوء، وهل هي من قراطيس تزقلب؟ وتدخل آخر بوصف اليونان لمن "لا يعرف ولا يعرف انه لا يعرف" ثم ذكر آخر رجل "لا يحب ان يعرف ويغضض من يعرف" فساد الصمت. لاحظت السأم على وجه والدي من ذلك الحديث، وأشار خفية لرجل عارف من أهل نعام، الذي سارع بنصحهم عن ذلك لأن الرجل يمزح معهم. كما تحدث بوقار أحد أعضاء مشيخة الفرانة، مبيناً أن ذلك الدارس قد أنفق عليه أهله ليدرس في مصر والشام، ثم كان من أوائل بعثات الطلبة للخارج، وقد سافر لتركيا وغيرها لتحصيل العلم. فأضاف الرجل أنه قد سافر أيضا إلى لندن للبحث، وكان والدي يلتقي مع قرابته في مجالس "قصمان مكة" وأحدهم يملك محطة وقود، تقع خارج العاصمة المقدسة آنذاك. وكانت تسمى شيشة البنزين واستغرب من ذلك، ثم لاحظت وجه الشبه بين خرطوم تعبئة الوقود في السيارات، وخرطوم سحب دخان الجراك من الماء أسفل

الشيخة. ولا علاقة لذلك بضاحية مكية نشأت هناك يقال لها الششة! قرب العزيزية وشمال نفق محبس الجن حالياً.

لم تكن تلك المجادلة هي الواقعة الوحيدة في المجلس، حيث يتجلى الفارق الشاسع بين العلم والجهل، ففي أواخر خمسينات القرن العشرين، ظهرت ثمار الجهود المتميزة للملك سعود، لتطوير البلاد علمياً حيث تفتتح مدرسة جديدة كل يوم، بمعدل 350 مدرسة كل سنة رغم الأزمة المالية. كما تأسست جامعة الملك سعود في الرياض، وأقيم صف من المعاهد على شارع الزاهر في مكة المكرمة، يتنافس على الالتحاق بها مئات من الشباب طالب العلم النظامي. وكان في مجلس أبي عدد من الوجهاء من العاصمة وكافة أرجاء المملكة، وثلة من أهل الحريق بعضهم علماء ولا يسلم الأمر من البسطاء، الذين انبرى أحدهم فجاءة ليقول بصوت عالٍ، هذه المعاهد والجامعة "لا يدرس فيها إلا الدشير والسمرد" فساد الصمت وهو يتطلع بدهشة وإصبع يمينه في أنفه ويسراه بين رجليه. قطع الصمت أحد المكاوية متسائلاً وأنت فين درست؟ ثم عاد الصمت فدعا والدي الله أن يحفظ المليك وولي عهده، ليحققوا المزيد من الرقي، وغادر ذلك الحريقي المجلس. أنهو للأحبة أن ذلك الرجل قد التصقت به صفات الجهل حتى بلغ أرذل العمر، وكان آنذاك يعمل كاتب في المحكمة، وكان أبوه قد حرص على زواجه مبكراً، وأن يعلمه لكنه بالكاد تمكن من فك الخط وأصبح معه قلم، لكنه لم يرتق كثيراً في سلم الوظائف العامة أو الأعمال الخاصة، بل بقي يستعطي الكبراء والولاة والقادة والوزراء، ويطلب الشفاعات لأمر شخصية. لكنه لأمر ما كان يتحدث عن أبي بضغينة وحقد وزور، وذريته بعضهم في مثل طباعه، لكن آخرين منهم طلبوا العلم في الجامعات والمعاهد، وصاروا رجال صالحين وفقهاء بعيديون عن سفاسف الأمور.

في المجلس بعد شهور اعتذر بعض القرابة، عما تلفظ به بعض أهل الحريق غريبوا الأطوار، لكن المبتعث القصيمي تبسم بالقول إن لديهم ما هو أسوأ من ذلك لفظاً وعملاً، وبعضهم يسمونه "القصيمي اللئيم" وهو الذي يبغض المتعلمين، لكن الله وهبه مال ليستدرجه. فقد كان الملك سعود يأمر بإنشاء كثير من المشاريع، على الأراضي البور في المدن الصغيرة، وإذا عرف الطامعون بذلك دلسوا حجج استحكام، ليقبضوا تعويض مصادرة الأرض، ثم يستغلوا بقية المساحة في إقامة محطة وقود على الطريق، أو تشييد بيوت قريية من المنشأة الحكومية، وبيعوا البقية بسعر مرتفع محققين ربح عالي. ثم يتناولون على طلبة العلم الذين لم يحصلوا على المال من السحت، وكأنهم لا يعلمون أن الاستهزاء والسخرية بعامة المسلمين فيها إثم عظيم، فما بالك بالفقهاء والمتعلمين! رد عليه أحد "حراقى المعابدة" بأن لديهم ما هو أسوأ من ذلك كثيراً، وهو "الحريقي الحقيير" الذي لكن شيخ في المجلس قاطعه، طالباً عدم الاسترسال في ذلك. ثم توجه بالسؤال عما جرى للدولة العثمانية، بعد أن هُزمت قواتها بسلاح جيش محمد علي باشا في الشام.

أجابه الرجل ان تلك كانت مرحلة حاسمة، تشبه ما حدث من قبل عند فك حصار فيينا، الذي استمر أكثر من قرن ونصف، ذاقت فيه دول وسط أوروبا الويلات من السطوة العثمانية. ولما تمكنوا من كسر الحصار اعتبروا ذلك بداية انحسار النفوذ العثماني. أما منازلهم مع إبراهيم باشا في الشام، فهي بداية سقوط امبراطورية آل عثمان بن ارطغرل، أما الاندحار في شنانة القصيم فهو الشاهد على قبرها. ثم أضاف قائلاً إن الباشا لما علم عن تجمع جيوش إسطنبول، التي تدعمها قوات بروسية ماهرة، في أقصى جنوب الأناضول، قرر التوجه مسرعاً لصددهم عن التوجه لدمشق. وقد وصل مسرعاً منهكاً من بعد المسافة وشدة الحر، فوجد عدوه يرتاح منذ أسابيع في سهول وتلال نُصيب. وبخبرته العريقة في حرب الدرعية ثم اليونان وبعدها كوتاهية، اختار ان يستقر جنوبهم في القامشلي، لكي يفسح لقادة خصومه أن يهربوا شمالاً نحو إسطنبول، فور قيامه بالهجوم الخاطف المعتاد، كي يتولى بعد ذلك تعقب مؤخرة فلول المنسحبين وبيطش بهم. ورغم الإرهاق الشديد لرجاله وركائبه، فقد تمكن خلال أيام قليلة من ترتيب المدفعية والجنود والخيل الخفيفة، لكي ينقض على الجيشين العثماني والبروسي، فشنت شملهم مما أجبر القائد العثماني على الانسحاب من الميدان، كما انسحب قبل ذلك بخمس سنوات من دمشق، وبعده تقهقر مندوب القيصر أيضاً وانهار الحلف الواهي، ووقعت في يد الباشا غنائم وافرة. قرر أن يستعين بها للتوجه نحو الشمال الغربي، ليصل إلى عاصمة الخلافة العثمانية خلال عشرة أيام، حيث لم توجد حاميات قوية في الطريق يمكنها صدّه، وأرسل لوالده في مصر يطلب المدد. وهو بدوره طلب من فرنسا المساندة، حيث توقع أن يهب الروس والإنكليز لمنع ولده من غزو إسطنبول، التي يطمعون هم في الاستيلاء عليها، لكن الفرنسيين كعادتهم يساعدون بالعواطف الرقيقة، أكثر من مساهمتهم بالحديد والنار، فأوصوا محمد علي بالاكْتفاء بالشام وصرف نظره عن الأناضول، لذا أمر ولده بالتريث لحين تبين الحال.

لقد أدت تلك الهزيمة القوية في نصيبين، لهز الرؤوس في روسيا وبروسيا وبريطانيا، لذا طُلب من عبد المجيد الذي تولى سلطنة بني عثمان بعد وفاة أبيه محمود، ومن محمد علي باشا أن يرسل مندوبيهما إلى لندن (لندن) للتداول حول ذلك. هناك وافق مبعوث السلطان المهزوم على كل ما اقترحه الداعون، لكن مندوب والي مصر رفض ذلك قطعياً فهو المنتصر. فجاء الرد كاسحاً حيث شنت سيده البحار، بريطانيا الكبرى هجمات قوية بسفنها، التي تعمل بالبخار وليس بالأشعة الهوائية، على موانئ الشام من اللاذقية إلى طرابلس ثم بيروت وعكا. وبعدها توجهت الاساطيل الإنجليزية نحو الإسكندرية، مهددة والي مصر بدخول قصر شبرا وخلعه. فلم يجد بد من القبول بشروطهم، بعد ان أخبره حلفائه الفرنسيين بعدم جدوى مصادمة بريطانيا، التي تمكنت قبل ذلك من اكتساح سفن اسبانيا وهولندا. لكن ملكة بريطانيا الشابة ذات القلب الحنون والمشاعر الرحيمة، أبت أن يخرج والي مصر العجوز خالي الوفاض، بعد أن فرضت عليه الاتفاقية أن يتخلى عن أراضيها في اليونان (جزر كريت) والشام ونجد والحجاز

واليمن، ويكتفي بالبقاء في مصر وبلاد السودان. لذا أضافت للاتفاق شرط ينص على عدم جواز أن يعين سلطان إسطنبول والي مصر، بل يُبقي محمد علي باشا والي مدى حياته، وبعد وفاته يكتفي بإصدار فرمان بتعيين الوالي الذي تختاره ذريته من كبارهم، وظنت أنها بهذا قد أنصفته من أن يفقد كل شيء.

تساءل أحد الحضور عن تلك الملكة الصغيرة، وكيف تمكنت أن تسيطر على القوى العظمى آنذاك، فأجابهم الرجل ان ذلك يرجع لأمرين، أولهما ما تميزت به من قدرات فكرية وأخلاقية، ثم من أحاط بها من المشاورين والأعوان. لقد كان جدها من أطول من جلس على العرش (لكنها تفوقت عليه بسنين) وكان الانجليز يحترمونه، لحسن سياسته المالية والحربية. أما الأمريكيون فيبغضونه بشدة لقسوته عليهم، فحينما كانت بلادهم مجرد مستعمرة بريطانية، فرض عليهم ضرائب فاحشة، ولما وصل الأمر للشاي ضجوا، وقرروا عدم جواز الضرائب عليهم لأنهم ليسوا أعضاء في البرلمان، ثم أعلنوا الثورة والانفصال عن مملكتهم، وأسسوا جمهورية أمريكا فشن عليهم حرب قاسية عن طريق مستعمرة كندا، لذا سموه الملك "جورج المخبول" ودافعوا عن بلادهم سنين طويلة، بقيادة ضابط حكيم اسمه واشنطن. وكان لذلك الملك ولدان أحدهما والد فيكتوريا، والثاني عمها الذي لم يعقب وتولت الحكم بعده، لكن البعض اعترضوا عليها لصغر سنها، وعدم تأهلها لرئاسة الكنيسة الأنغليكانية البروتستانتية، مما جعلها لاحقاً تفتح قلبها وعقلها للجميع. فأحاط بها رجال كاثوليك ويهود بل ومسلمون، وتستمع لكل مشورة بذهن متوقد، ثم تختار ما تشعر ان فيه الخير لبلادها. وبعد زواجها من قريبها وانجابها عشرة من الذرية، علاها الوقار والرزانة خلاف ما كانت عليه لما صارت ملكة وهي لم تبلغ العشرين، حيث اصطف لها حشد من نبلاء ووجهاء إنجلترا وإسكتلندا وويلز وايرلندا، مع لفيف من أبناء أمراء وملوك أوروبا، في فرنسا وفلورنسا وبروسيا وبلجيكا وهولندا، لكنها رفضتهم جميعا بل استهزأت ببعضهم، فقالت عن أحدهم أن أنفه معقوف، وآخر عينه جاحظة وغيره عينه غائرة، لكنها لاحقاً اختارت قريبها وسكنت حالها معه. إلا انها لم تسلم من التدليس عليها، فقيل إنه لما أصابت رعيثها في ايرلندا جائحة أتلقت المحاصيل وجاع الناس، فُتح باب التبرع لشراء طعام للمعوزين، فساهمت بخمسة جنيهات لهم وعشرة جنيهات لمأوى الكلاب الضالة! أما المسلمون في أكبر مستعمراتها (الهند الكبرى عدة دول حالياً) فقد ضجوا من سيطرة شركة الهند وطغيانها، التي كانت تدير البلاد على أساس المنفعة التجارية فقط، وشيدت السجون وغرف الجلد ومشانق الإعدام لمن يعارضها، ولما ثار الناس عليها وحدثت اضطرابات، تعاملت الملكة بحكمة، فألغت امتياز الشركة ومنعتها من التصرف بوحشية مع الأهالي، وجعلت الهند تابعة للدولة وعينت حاكم لها، أسوة ببقية المستعمرات مثل كندا وأستراليا ونيوزيلندا. وقال أبي ان من نتائج تلك الثورة ضد الشركة، ان هرب الكثير من علماء مسلمي الهند من البطش، وجاء بعضهم إلى بلاد الحرمين فارين بحياتهم ودينهم، وقد تعلم في حلقات الحرم المكي على يد عدد من أبناء

وأحفاد أولئك العلماء، خلال الربع الأول من القرن العشرين، وبعضهم كان يُدرّس في الصولتية. ثم بين للحضور في مجلسه ان تلك المدرسة العريقة، لم تنشأ الأُميرة الهندية "صولة النساء" ذات الأصول المغولية، بل أقامها الشيخ رحمة الله الكيراني، حينما جاء لمكة المكرمة فاراً من بطش شركة الهند، وأسس مدرسة لتعليم المجاورين للحرم القرآن الكريم وأصول السنة المطهرة. وبعد أكثر من عشر سنوات على وصوله للحرم، جاءت تلك المرأة للحج في ركاب حافل، ولما قضت المناسك ووزعت كثير من الصدقات تبقى لديها مال وفير، اقترح عليها أحدهم إقامة رباط يسكنه ويأكل فيه فقراء الحجاج، لكن آخر أشار عليها بانفاق المال لتطوير "مدرسة الكيراني" وتوسعتها. وقد تم ذلك حيث أصبحت المدرسة تسمى الصولتية مجاورة للحرم، وقد رعى الشريف حسين تلك المدرسة بعد وفاة مؤسسها، وبعد دخول الملك عبدالعزيز مكة سمع عن تلك المنشأة التعليمية الراقية، فزارها وخصص لها أموال ونفقة للمدرسين والدارسين فيها، وعند التوسعة التي قام بها الملك سعود للحرم نقلت لموقع آخر ومازالت قائمة.

قال أحد كبار المطوفين ان حاج هندي أخبره أنهم كانوا يبغضون فيكتوريا، ودبروا إرسال "الألماسة الملعونة" لها لكي تقتلها، لكن الموت حل بزوجها لما ارتدى تاج مرصع بتلك الجوهرة الثمينة. وتساءل عما إذا كان لدى أحدهم نباء يقين عن تلك الألماسة، فتحدث رجل أفغاني يبدو أنه موظف حكومي كبير، حيث كان أبي يدعو بعض مرتادي الحرم للمجلس بعد صلاة الجمعة للتعارف وتناول الغداء، ويظن البعض ان ذلك على نفقة ميزانية الدولة. قال الرجل إن موضوع تلك الألماسة يشوبه الكثير من الخرافات، ومن الصعب معرفة كيف وجدت تلك الألماسة الكبيرة والمميزة، وأقرب الأقوال انه عثر عليها قبل ثلاثة آلاف سنة، في كهف بسفح أحد الجبال الأفغانية أو في مجرى مائي. ويعتقد أن حجمها آنذاك كان يزيد عن ضعف حجم الألماسة المرسله لفكتوريا، وكانت تتزين بها نسوة أمراء شمال الهند لفترة طويلة، ثم تخفي فترات أخرى مجهولة. وقبل ثمانية قرون عادت للظهور زمن بدء الزحف المغولي نحو تركستان، حيث تنازع عليها اثنان من الإخوة الأمراء في خوارزم، وقررا المبارزة للفوز بها لكن الاثنان أصيبا فيها بنزيف وجراح غائرة أدت لوفاتهما. وعليه أطلق عليها البعض اسم "الماسة الدم أو الأخوين" ثم شوهدت ترصع عمامة بيضاء ضخمة يعتمرها أحد أمراء المغول، الذي مات بعد ذلك بقليل فسماها الناس "الألماسة الملعونة" وشاعت بين القوم الكثير من الترهات حولها. ومن تلك الأقاويل أنهم عرضوا على بعض رجال الدين (الفقهاء) أن يضعوا تعويذة تزيل ذلك الشؤم المحيط بها، وجزت عدة محاولات بقراءة آيات من القرآن عليها، لكن الموت كان يلاحق كل من يتزين بها. وبلغ الأمر أن أوصوا بدفنها في حفرة تجميع المياه والفضلات، في ميضأة أحد الجوامع الكبيرة بالهند لعشر سنوات، لكن الموت بقي يلاحق كل من يحوزها. وأضاف الرجل ان مما قيل عنها ولم تثبت صحته، ان آخر ملاكها كان يرغب في إبقائها عنده لجمالها

لكنه لا يريد النحس منها، لذا أوصاه أحد العرافين (كاهن) المجوس أن يقسمها نصفين فتخرج اللعنة منها والشؤم. ورغم معارضته لذلك حيث قد تتلف إلا انه قرر الرضوخ لتوصيته، ولما توج عمامته بالنصف الأكبر منها مات بعد شهور قليلة، فازداد تشاؤم خلفائه وأبقوها بعيدة عنهم. بعد ذلك استقر رأيهم في الربع الثاني للقرن الثامن عشر (نحو 1730 م) على تسمية النصف الأصغر (الكوكب الدرّي) واهدائه للحجرة النبوية الشريفة في المدينة. وذلك بإرسالها إلى حامي الحرمين خليفة الإسلام في إسطنبول، مطلع القرن 11 هـ واستأذانه لوضعها على عمود رخام فاخر، وفي علبة ذهبية مبطنه بالدبياج عند رأس لحد المصطفى عليه الصلاة والسلام. حيث كان مسلمو الهند بل وحتى الملايو يبجلون الخلافة، رغم عدم دخول أي جيوش عثمانية لبلادهم، لكن لديهم ما سماه أحدهم في مجلس أبي "عشق الإيمان" وحب النبي وتوقير الخلفاء الراشدين. أما النصف الأكبر (جبل النور أو قوهي نور) فباعوه لنادر الصحاح أمير بلاد فارس (قبل إيران الصفوية الرفضية) لكنه لما علم بسر الشؤم فيها طلب إعادة ماله ورجعت الألماسة للهند. وبقيت هناك حتى بعد منتصف القرن 19م، ثم أهديت لفيكتوريا لما ألغت شركة الهند المتغترسة، وارتاح المسلمون من شرورها.

لم يكد الأفغاني يستكمل حديثه عن تلك الألماسة، التي جاء نصفها الأصغر لقصر سلوى في الدرعية، إلا وقاطعه أحد الجالسين بالسؤال عن صفات الألماسة وبخاصة لونها وحجمها، وقال إنه سمع أنها أكبر وأجمل الماسة عرفها البشر. فرد عليه بما سبق أن قاله عن الكثير من الخرافات المحيطة بها، منذ ثلاثة آلاف سنة وحتى ذلك الحين. ثم أضاف انه ربما كانت الجوهرة الأصلية قبل قسمتها من أكبر الماس العالم، أما بعد عمليات الصقل المتتالية ثم تنصيفها فلم تعد كذلك، فقد قالت بعض مصادر المعرفة أن وزنها الأصلي كان يقارب 1300 قيراط، زمن الغزو المغولي قبل سبعة قرون. لكن المعضلة هي في جهل الكثير بمعنى قيراط الجواهر، حيث يعرف الناس قيراط الأرض الذي يبلغ نحو 170 متر مربع، لكنهم يختلفون حول قيراط الألماس والمجوهرات، فيظن بعضهم أنه يعادل خمس غرامات (جرام) لكن ما اتفق عليه هو أن ذلك القيراط يعادل خمس قرام فقط، أي أن الفارق يبلغ خمسة وعشرين ضعفاً، وهو فرق كبير جعل التفاوت في تقدير وزن الألماسة شاسع. لقد كانت أقرب التقديرات للصحة ان الألماسة الأصلية، كان وزنها قبل ألفي سنة نحو ألف قيراط، وقدّر المخطئون ان ذلك يعني خمسة كيلو جرامات أي بطيخة متوسطة، وهذا ما لا يقبله مدرك لطباع الأحجار الكريمة. إن الألماس تتراوح كتلته بين نصف حبة الخردل (أو السمسم) وتزيد حتى تبلغ مثل حبة الحمصة، أما ذات حجم يعادل لوزة البندق فهي نادرة وثمينة، اما تلك التي تقارب البيضة فهي غير معهودة ولا تقدر بثمن. وحتى لو أخذنا بتقدير أنها تزن أكثر من ألف قيراط، فلا بد أنها كانت في حدود ربع كيلو غرام أو أقل، مع الأخذ في الاعتبار أن الصقل في العصور القديمة بدائي، وتبقى الكثير من الأتربة ملتصقة بالجوهرة. أما بعد قسمتها نصفين فإن أحدهما كان يزيد قليلاً عن مائة جرام والآخر

يقول عن ذلك، وفي القرن الماضي (19م) تطورت معدات التشكيل والقطع، مما أدى لإزالة أكثر الشوائب الملتصقة بالألماس، مما جعل كلا النصفين يقل عن بعض الجواهر لذا فهما ليسا أكبر ما هو موجود.

أصر أحد الحضور على الرجل ان يحدثهم عما إذا كان أحد النصفين هو أجمل الماسة عرفتها البشرية، فقال إنه قد التقى مع رجال ثقات وخبراء ممن شاهدوا الماسة {الكوكب الدرّي} في إسطنبول، والماسة جبل النور {كوهينور} في لندن، وأفادوه جميعهم أنهم ليسوا من الصنف الراقى، الذي تكون انعكاسات الضوء عليه باللون الأزرق البديع، بل إنهن ذوات سطوع يميل للحمرة الداكنة يقارب لون الدم القاني. ومن المعلوم أن الألماس الجيد وإن كان صغير الكتلة، إلا انه يعكس الضوء بألوان الطيف السبعة، مع وفرة اللون الأزرق السماوي كما في ألوان قوس قزح، التي أعلاها البنفسجي وأدناها الأحمر، أما أقل منه (انفرا ريد) فلا تدركه أبصار البشر، ويظن البعض أن الوطواط أو كائنات أخرى تدركه. لذلك فإن كلا الألماسين وان كانت من كبار الحجم، إلا أنها ليست بديعة الجمال، حيث النور الأزرق المنعكس من سطحها قليل ولا يتلألأ بجاذبية مبهرة. ومما يزيد المشكلة وجود بريق أصفر منها، وهو من الضوء غير المحمود في الجواهر، ويجعلها تبدو مشابهة لقطع الزجاج البوهيمي المصقولة بمهارة. ثم أضاف أن أحد المختصين قد أفاده، ان كوهينور المهداة لفيكتوريا قد عُهد بإعادة صقلها، لخبير بلجيكي مختص لجعلها بشكل مقاطع منشورية، تشبه حبات الرمان ذات السطح المتكسر البديع، ورغم جهده الفذ إلا ان الألماسة فقدت بعض وزنها ولم يتحسن انعكاس الضوء عليها، مما أغضب الملكة وزوجها عليه، ومع هذا فقد بقيت أجمل وأكبر من شقيقتها الكوكب الدرّي.

تكلم أحد الحاضرين في مجلس والدي رحمه الله، فقال إن جده كان يكثر الحديث عن مقتنيات الحجرة النبوية، التي أحضرها الإمام سعود معه من المدينة، وكانت في أربعة صناديق خشبية كبيرة فاخرة. وتضم سيوف وخنجر وسلاسل ذهبية ومعاليق وأساور وأزرار، وكلها مرصعة باللؤلؤ والياقوت والفيروز والكهرمان، وتفوح منها رائحة العنبر والصندل وأطيب العطور. إلا ان أئمنها كانت في علبة طولها نحو ذراع وعرضها شبر ونصف، وتحوي جواهر ثمينة للغاية. وقد احتفظ بها الإمام في قصره بالطريف، وكان يعرضها على كبار زواره قائلاً إنها تفوق قيمة دنانير الدنيا كلها. وقال له حراس وخدم المرقد الشريف انهم يخشون من جنود مصر، المرافقين لطوسون باشا أن يستولوا عليها لذا فقد جاء بها للدرعية لحمايتها، وستعاد إلى هناك فور ان تضع الحرب أوزارها. إلا ان أحد المشاركين في الجلسة، استدرك بالقول ان الدرعية آنذاك مرت بوقت صعب، حيث ظهرت آفات أصابت البشر والدواب والشجر، وبعد فترة غير طويلة توعدك الإمام سعود (أبو شوارب) وانتقل إلى قصر سلوى حيث استكملوا علاجه في مهجع ابنته وضحاء، لكن المنية عاجلته بعد أيام من معاناته الآم حادة في بطنه. وبعد وفاته نشب خلاف حول تولي عمه عبدالله الحكم، لكن الأمر انتهى بتولية

أكبر أبنائه (عبدالله) الذي أمضى خمس سنوات في نضال مرير، حارب أثناءه ضد الغزاة الغرباء، وانتهى به الأمر أسيراً يقاد للمشنقة حاملاً صندوق الألماسة، والدرعية عاصمة إمارة آل محمد بن سعود قد أصبحت خرائب. أما النصف الآخر من ذلك الحجر الثمين، فقد استقر في أحد تيجان قصر باكنغهام (لندن) على صليب، تنزين به الملكة فيكتوريا في حفلاتها الصاخبة، لكن لما ارتداه زوجها عاجلته المنية وهو في منتصف العمر، بينما عاشت أرملته عشرات السنين بعده، مما أثار كثير من الأقاويل حول كنه تلك الألماسة العجيبة.

سأل أحد الحضور عن رأي أبو خالد في الألماسة الملعونة، فقال له والذي انه بالرغم من كون ذلك يتعارض مع "العقل والإيمان" إلا ان تأويلات ما ورد في القرآن عن الشجرة الملعونة، تجعلنا ندير الفكر حول الأمر ومدى "الحقيقة والخيال" فيه. ولا شك ان الله وحده "خلق الموت والحياة" لئيلونا أينما أحسن عملا وليست الأحجار الكريمة، كما ان العلوم المعاصرة لا تؤيد مثل تلك الأحداث، لكنها تقف عاجزة عن تمييز دعاوى وجود أمور فوق طبائع المواد، وبخاصة بعد ان اكتشف الناس قوى الأشعة الصادرة عن بعض العناصر. لهذا فقد بين أنه لا يستطيع الجزم بصحة أو كذب تلك الأنباء، وليس لديه ما يقوله سوى {الله أعلم} وأن له سبحانه في خلقه شؤون لا يحكمها سواه، والأمر برمته تحيطه كثير من التأويلات، وقد لا يسلم من بعض الأكاذيب أو المبالغة المشكوك في صحتها. تدخل أحد الأطباء في البلدية (بيطري) وقال انه قبل نهاية القرن التاسع عشر، تمكن الألماني رونجن وبعده البولندية ميري كوري، من معرفة بعض خصائص العناصر المشعة مثل الراديوم. لكنهم لم يدركوا خطورتها على أجسامهم، ويمسونها بلا عازل مما أدى لإصابتهم بأمراض خطيرة، بخاصة في الأنسجة والخلايا الرقيقة مثل بطانة الشرايين والمثانة والرئة. وربما ان تلك الألماسة تحمل مواد مشعة، أثرت على من يلامسها في البداية ثم تلاشت أضرارها عبر القرون، ثم أكد أن الأمير ألبرت زوج الملكة فيكتوريا مات بمرض الدوزنتاريا، وهذا موثق في السجلات الرسمية البريطانية الدقيقة. تدخل رجل خرجاوي في الحديث، فقال ان أحد أقارب خاله كانت لديه احدى "البنادق الملعونة" للملك عبد العزيز، التي كان يعهد بها للمجاهدين معه، ويكتب على ماسورتها الحديدية أنها ملك ابن سعود ويلعن الله من بدلها. لكن الرجل ذهب للحداد وطمس الكتابة وباعها، ثم مرض ومات بعد فترة وجيزة، حيث حلت عليه لعنة بندق ابن سعود، التي تشبه ذلك الحجر الملعن وتؤيد القول عنه. ثم أخبرهم رجل مكاوي أنه قد التقى في الحرم مع الأفغاني، الذي حدثهم قبل ذلك عن الألماسة المغولية، وطلب منه ان يبين له ما ذكر عن وجود الكثير من الخرافات حولها. فقال إنها كثيرة ومنها ان ليس كل من لامسها يموت سريعاً، بل يقيت مع البعض عشرات السنين لم يروا فيها أذى، بل كانت مصدر بركة لآخرين. كما قال ان الظن بأن {الكوكب الدرّي وكوهينور} هما شقيقان غير مؤكّد، وربما أنهما لم يكونا نصفي ألماسة واحدة، بل قد يكونا ألماسيتين عثر عليهما في سنين متباعدة، في أفغانستان

وانتقلت احدهما للهند والثانية لإيران، وبذلك فرما لا علاقة بين جوهرة قبر الرسول والدرعية وإسطنبول، مع جوهرة فيكتوريا.

كان المربي الفاضل الشيخ إبراهيم الشورى (رحمه الله) حاضراً المجلس، حيث أنهى بناء منزله في جدة على طريق المدينة، ويحرص على صلاة الجمعة في الحرم المكي. وقد أشار إلى ان النجديين يوقرون فيكتوريا، لأنها من أمرت بخروج قوات الباشا من أرضهم، وأعدت حكم ذرية ابن سعود لهم، لكنهم في مصر يبغضون ولايتها على بريطانيا التي زادت على ستين سنة، حيث هي من أرسلت جيشها لاحتلال مصر. لكن أحد الحجازيين من أصول مصرية، قال إن فرنسا وتركيا كانوا أسوأ من الانجليز كثيراً، حيث أصدر السلطان عبدالمجيد فرمان، بجعل العمل في الترعة المالحة (قناة السويس) من أعمال الجهاد الإلزامي على كل قرية مصرية المساهمة فيه، وذلك لقاء جزء من ريع القناة يدفع للسلطان. وبذلك أرسلت أعداد غفيرة من الفلاحين والصعايدة، ليعملوا بدون أجر في الحفر، لكن قلة الطعام والماء وقسوة المناخ أدت لموت كثير منهم، كما أن الأرض الملحية والرمال الناعمة، أدت لانهايار جوانب المجرى الذي يحفرونه. وبعد ثلاث سنوات من الفشل الذريع، انهارت أسهم الشركة في بورصة باريس. آنذاك كان مستشارو فيكتوريا يراقبون على بعد، ويشترون بعض الأسهم بسعر بخس، وبعد سنتين من تعطل العمل، والتيقن ان جهد الرجال والجمال والبغال لن يؤدي الغرض، ظهر دور بريطانيا التي اعتبرت القناة حيوية لمصالحها، في درة تاج المستعمرات وهي الهند. لذا قدمت عرض لفرنسا (ديلسبس) ومصر الشركاء الرئيسيون في القناة، ان تتولى هي الحفر وحدها وبرجالها، لقاء أن تكون أسهم المؤسسين مقسمة على ثلاثة. ثم جاءت بعفاريت القرن 19 هـ وهي مكائن البخار (فابور) ومدت أشرطة حديدية على طرفي القناة الشمالي والجنوبي، وأخذت الحفارات العملاقة ترفع أطنان من الرمال، ولمنعها من الانهايار في الحفرة تسكب عليه المياه المالحة المتدفقة من البحر، وكان ذلك غير ممكن بالعمل اليدوي حتى لا يغرق الرجال والدواب، بينما البابورات تعمل على السكة أعلى الحفرة. وبذلك أمكن انهاء الحفر وتدعيم الجوانب في ثلاث سنوات، ولولا الرافعات البخارية وجهد مشغليها ما انتهت آنذاك، لذا فقد كان يحق لفيكتوريا الطلب بثلاثة أخماس ملكيتها وليس الثلث فقط، فهي التي حفرتها فعلياً وليس الفرنسيون ولا المصريون. اغتاض الأستاذ الشورى من ذلك، ورد عليه ان ارسال أهله له للدراسة في فيكتوريا كوليج بالإسكندرية، ربما أثر على تفكيره بشدة متحيزاً للانجليز المحتلين. لكن الرجل قال ان القناة حيوية لبريطانيا، فهي شريان تواصلها مع الهند الكبرى وأستراليا ونيوزيلندا، ولما عُزل الخديوي إسماعيل وتولى ولده توفيق حكم مصر، اضطربت أحوال مصر وقام ناظر (وزير) الحربية بتمرد، وحاصر بجنوده قصر الحكم وارتج الأمن، فحدثت هجمات غوغائية على السفن المارة في القناة. وهذا ما دفع الانجليز لإرسال قوات مسلحة لحماية السفن العابرة، ثم تدهورت الأحوال بعد ذلك.

ولما شعر الرجل بالصمت يسود المجلس، تكلم عما جرى في مصر قبل خمس سنوات، لما جاء لحكمها البكباشي جمال وقرر تأميم القناة، قبل سنوات قليلة من انتهاء امتيازها، وكانت ستعود لمصر صافية بلا حرب ولا شغب، لكن رعونته أدت إلى أن تهجم عليه فرنسا وبريطانيا، بعد أن أدت هزيمته أمام اليهود لاحتلال سيناء وقل القناة. ولم ينقذ رأسه الخبيث إلا تدخل أمريكا، لكنه اضطر لدفع تعويضات باهظة لحملة الأسهم، ناهيك بما تحملته مصر من قتل ودمار نتيجة عمله الطائش، الذي جر بلاده لويلات وخراب ما زالت تعاني منه حتى ذلك الحين. وها هو يغطي على هزائمه المتوالية في فلسطين ثم السويس، بادعاء انتصارات مزيفة وخداع الأمة بالوحدة مع سوريا. استنكر عليه أحدهم ذلك القول وأكد ان ناصر بطل العرب، ومعرسته ضد الاستعمار أيده فيها الجميع، ولما هجمت عليه دول البغي قبل ثلاث سنوات، تطوع الكثير للنضال معه بمن فيهم بعض أبناء الملك سعود، وعدد من اخوته مثل الأمراء فهد وعبدالله وتركي وسلمان أبناء الملك عبدالعزيز. فرد عليه ان الرجل الحقير (ابن البوسطجي) يحقد على الجميع، وقد تزلف لسعود ليقنع نجيب ان يتنحى له عن رئاسة مصر، ثم توسل اليه للمساعدة في تحقيق الوحدة مع القوتلي. وبعد كل ما قدمه له الملك سعود، الذي كان يخاطبه كوالده ها هو قد انقلب عليه، ويطلق ابواقه الكريهة في صوت العرب بالسباب البذيء. ثم تأمر مع ضباط أنزال مثله ليقتلوا الملك فيصل ورجال ونساء الأشراف في بغداد، وهذه فعال من يحمل الحسد والضغينة على كبراء الأمة، ويقود بلاده إلى خيبات عظمى في القريب.

قبل ان نعود لما سرده العم زيد على أبي، حيث توقفنا في نهاية الفصل السابق، حينما كان خورشيد باشا يعد لمغادرة البلاد، والأمير خالد بن سعود (الأفندي) يجهز نفسه ليكون الإمام على نجد، بدلا عن موقعه آنذاك كقائم تحت تصرف الباشا. أود ان ابين للأحبة اني أجد نفسي تعج بثلاثة أمور، أحب لو أسرده عليكم هنا رغم عدم دخولها في سيرة أبي، رغم تحرجي من زج معلومات شخصية لدي، وأترك ذلك لمكتوب آخر لو قدر الله فسحة في العمر والعافية. وتلك الأمور تتعلق بالمعركة الفاصلة في "نزيب أو نصيبين" حيث التقى جيش إبراهيم باشا بالقوات العثمانية البروسية، والثاني عن الأماسة الأفغانية الملعونة، والثالث عن الدور الماكر لملكة الإنجليز في بلادنا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. الأمر الأول يرتبط بزيارتي لشمال سوريا، بُعيد مولد أولى حفيداتي (سارة رعاها الله ووالديها وكافة الأحبة) فقد كانت لي علاقة مع بعض قحاطين الشام الطيبين، ثم تطور الحال لعلاقة شخصية خاصة. لقد هالني ان الجماعة هناك لا يعرفون على وجه التحديد مكان تلك الموقعة، التي رغم هزيمة الترك فيها قد مدت عقابيلها أجل الدولة العثمانية نحو ثمانين سنة. لقد كان هناك خلاف عميق حول مكانها، فالبعض يقول انها شمال شرق الاسكندرونة داخل حدود تركيا، وقال آخرون انها عند مدينة القامشلي السورية، قرب المطار الكبير الذي يخدم الحسكة والرقعة. أصر أهل الحسكة القحاطين ان المعركة جرت في القامشلي، ومعظم العرب

فيهم من شمر التي تتحدر من عشيرة طيء، قوم حاتم الكريم زمن الجاهلية، وهناك الجبور وهم ليسوا من سبيع، حيث معظم العشائر التي فيها شخص يتقن تجبير الكسور، تسمى ذريته آل جبر أو جابر وجمعهم جبور. وقد لاحظت ان سبيعي لقب يطلقونه على من ولد من حمل سبعة أشهر، أما جماعتنا جبور سبيع فلا يوجد لهم أناس هناك، لكن يسكن قلة منهم دمشق لما جاءوا للتجارة مثل (أو مع) العقيلات. وهناك الكثير من غير العرب، غالبيتهم أكراد ومنهم سوريان وأرمن وأشوريين، مازالوا متمسكين بلهجاتهم وشعائيرهم، بعضها من النصرانية والبعض الآخر طوائف غريبة. لقد أعجبني اسم إحدى البلدات وهي "القحطانية" لم أجد فيها شيء من سمات وشيم كرام القحاطين، من البدارين والعمونيين وغيرهم، بل رأيت فيها نماذج منحطة من البشر، فمنهم من يتكلم برطانة شاذة وطقوس منكرة، فبعضهم يعبد الشيطان ويراه أطيّب من الرحمن، لأنه يدلهم على الملذات ولا يحرمهم منها. وآخرون في الجوار يعبدون الشمس أو الحجر والشجر، كما رأيت بعيني وليس كما يدعي الأفاقون على أهل اليمامة، الذين لم يعبدوا سوى الواحد الأحد من بعد مسيلمة. ويوجد هناك من يعبدون البشر من دون الله مثل المرشدية والنصيرية، بل والعياذ بالله هناك من يؤله ويصلي لموضع "العفة عند المرأة" وبينون معابدهم على صورته قبحهم الله، حيث يدعون أنه ينبوع الحياة والمتعة. لما تفكرت في ذلك يا أحبتي ملياً وأسبابه، خطر لي ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أمر الله به هو الحصن عن مثل تلك الرذائل، إن نبذ هذه الشعيرة التي أكد سبحانه على أهميتها هو ما يسوق حثالة البشر للعبث بالمجتمع. إلا أن النهي عن المنكر يقوم به المحتسبون الأجر من الله، أما من يشركون مع الله الرغبة في الحصول على المال، فليعلموا أنه غني عن الشركاء، وسبق ان قصصت عليكم (شفوياً) ذلك الرجل الفاشل في كل عمله، ولما سعى له أحد القرابة في وظيفة من الحسبة ليتعيش منها، أخذ العصا ونزل للسوق يصيح في الناس "روحوا صلوا الله يلعن ---كم و--كم" فشبّه هذا للأسف كثير مما ينفر الناس منهم. لذا فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون مخلصاً إلا إذا كان لابتغاء الأجر من الله وحده، أما خلاف ذلك فهو مما ينفر المسلمين عن الشعائر ويقودهم للضلال "ويقال له أفتان أنت يا !!!" نسأله العافية والسلامة.

لما لم أجد ما يزيديني علماً عن مكان معركة إبراهيم باشا، ضد الجيوش العثمانية والبروسية في شمال شرق سوريا الحبيبية، توجهت غرباً، مع اثنان من الصحب أحدهما من الرياض والآخر من حلب. عندما عبرنا نهر الفرات تفكرت ان القائد العثماني، جاء لنصيب من شمال غرب الأناضول متجهاً لدمشق، ليحررها من قبضة الجنود المصريين بقيادة إبراهيم مدمر الدرعية، فليس لهم حاجة في التوجه شرقاً للقامشلي، ثم الانتكاس والعودة لعبور الفرات العريض. ثم تذكرت ما قاله أحدهم في مجلس أبي ان منزلة نصيب (أو نزيب) كانت قرب جبال طوروس، واسترجعت ما قرأته في درس التاريخ الذي لم أكن أحبه، عن ان السلطان سليم لما جاء من الأستانة لغزو مصر، التقى بجيش المماليك بقيادة قنصوة الغوري في مرج دابق. فسألت مرافقي السوري

عنها فقال انه لا يعرفها، لكن سائقنا قال ان هناك قرية تقع جنوبنا تسمى دابق، عندها تبقت ان المعركة قد جرت قريباً من ذلك المكان، وهو قرية صغيرة يقال لها طريخم ذكر لهم أحد سكانها ان نصيب تقع شمالاً، داخل الحدود التركية بنحو ثلاثين كيلو. ولعدم وجود طريق مباشر يلزمنا التوجه غرباً نحو الاسكندرونة، ثم الاستدارة والعودة شرقاً نحوها، وذلك الإقليم هو ما سلخه المستعمر الأوروبي من الشام، ومنحه لتركيا بدعوى تعويض عن إعطاء سوريا منطقة المثلث، التي جعلها تطل على دجلة بشرط قصير، لكني لم أجد ما يستدعي ذلك. ان الهزيمة الكاسحة التي انزلها إبراهيم باشا، بقوات السلطان محمود هناك كانت مرحلة مفصلية للدولة العثمانية، حيث كان لدى الباشا "الرغبة والقدرة" على الانطلاق مباشرة نحو إسطنبول، وشنق السلطان وضم كافة أراضي مملكته لدولة مصر. لقد ارتجت أوروبا كلها لتلك الواقعة، وبدأت المداولات حول كبح جماح المصريين، الطامحين لتأسيس امبراطورية إسلامية فنية تقضي على مطامعهم في الاستيلاء على النواحي العثمانية كلها.

لقد باشرت الدول الكبرى في أوروبا وضع خطط إيقاف إبراهيم عن التوجه لإسطنبول، كان أهمها ما يجري في لندن عاصمة فيكتوريا، الملكة التي لم تبلغ العشرين لكنها في غاية الدهاء. فلما اجتمعت مع مستشاريها رفضت اقتراح بعضهم بالسماح لجيش مصر بالقضاء على الدولة العثمانية، قائلة ان المحمديين (المسلمين) لو استولوا على تلك الأقاليم فسيشكلون خطر أعظم عليهم. ولما اقترح آخرون وجوب اسقاط العثمانية بقوات مسيحية رفضت، قائلة ان ذلك سيؤدي لبليلة أعظم ومشاكل في كافة الأقاليم العثمانية، وكان اقتراحها أن سقوط العثمانية لا بد ان يكون من الداخل وبأيدي مواطنيها. لكن ذلك لا بد ان يكون على مهل وخلال سنوات طويلة، لتتمكن بريطانيا من قضم أطراف تلك الإمبراطورية تدريجياً، حتى لا تحدث قلاقل مع الجاليات الإسلامية في البلقان أو بلاد العرب. قال مستشاروها إن المعضلة تكمن في انه منذ معاهدة كوتاهية قبل خمس سنوات، اتضح للجميع ان المشكلة ليست في قوة باشا مصر، ولكنها في ضعف السلطان الذي غدا عاجزاً عن حماية عاصمته. لذلك باشرت روسيا في الاستيلاء على الأجزاء الجنوبية لها، فضم قيصرها بعض بلاد الداغستان والكزخ لمملكه، وقامت فرنسا باحتلال جزائر المغرب، أما بريطانيا فاستولت على عدن لتضع فيها مخازن الفحم الحجري، اللازم لسفنها البخارية المتجهة للهند وأستراليا. وانتهت المداولات على وجوب اتخاذ إجراءات تكبح جماح الباشا، وتحد من جهوده للقضاء على سلطان إسطنبول، وتضمن أن يجري التخلص من الإمبراطورية العثمانية المريضة بشكل تدريجي، وبعوامل نخر داخلي تستند على التناقضات العرقية والمذهبية بين رعاياها، وبما يكفل للدول العظمى أن تستولي على أطرافها تدريجياً. وقبل قيامهم من جلسة التداول وصلهم الناعي بوفاة السلطان محمود، فقال مستشار الملكة هذا أوان تقسيم التركة! فردت عليه بأن ذلك لا بد ان يتم على مهل ويستغرق مالا يقل عن نصف قرن، ثم تساءلت عن فترة جلوس محمود على العرش، فقالوا انها

تنوف على ثلاثين سنة، فاستكثرت ذلك حيث أباهما حكم لعشر سنوات، ولما ليس له ذرية ذكور حكم عمها سبع سنوات ومات ليس له ذرية، فأل عرش "بريطانيا العظمى!" لتلك الصبية التي لم تبلغ العشرين، واستكثرت الثلاثين سنة على محمود، غير عالمة ان الله قدر لها ان تحكم لأكثر من ستين سنة، ولم تسقط الدولة العثمانية إلا في زمن حفيدها جورج. هذا ما سمعته من أحد المبتعثين لدراسة التاريخ في مجلس صاحب هذه السيرة، وأنداك لم يكن قد مضى على تولي حفيدها سوى خمس سنوات، والناس يتحدثون عن بهاء وحنكة اليزابيث، في مواجهة صعود النفوذ السوفيتي والأمريكي، لكنها ما زالت متربعة على العرش منذ نحو سبعين سنة، والله يُقدر الأعمار "وما تدري نفس بأي أرض تموت" ولا متى؟

أود ان اختتم هذا الاسترسال بذكر ما لدي شخصياً عن الألماسة العجيبة، التي كان الناس يتحدثون عنها كثيراً في منتصف القرن العشرين، وتشيع بينهم ملحوظات متناقضة يصل بعضها لدرجة الخرافة. لقد شاهدت جوهرة جبل النور لأول مرة، لما كنت مع بعض الرفاق مبتعثين للدراسة زمن الملك فيصل رحمه الله، وأثناء توقفنا في لندن اقترحت زيارة "مجوهرات التاج البريطاني" ورفض البعض لأن ذلك يثير الكآبة في نفوسهم، ويفضلون زيارة محلات ممتعة مثل "مكة لندن" التي لم ادخلها قط. ذهبت مع اثنان لمشاهدة مجوهرات التاج، المعروضة في مكان ضيق لكنه حسن الترتيب مضيء، وعلى وسط التاج الرئيسي "الماسة كولوني" الضخمة اللامعة بزرقة جذابة، وعلى يمينها الماسة جبل النور الأصغر (بحجم بيضة حمامة صغيرة) وببريق يميل لحمرة كئيبة، ويرصع التاج باعداد غفيرة من الياقوت والزمرد. لقد كتبوا جوار كل تاج معلومات عنه، ورسم يدوي يوضح موقع الجواهر الرئيسية، وأسمائها ونبذة موجزة عنها تبين تاريخ القطعة. وكل تاج في صندوق زجاجي مصفح، وفي الجوار صناديق أخرى تحوي صولجانات الملكة وأيقونات وشارات ومشابك، من المعادن النفيسة والأحجار الكريمة. سألت صاحبي عن التاج الرئيسي الذي تعتمره الملكة في المناسبات الرسمية، وإحدى مجوهراته كتب عنها انها كوهينور، وقد اهديت قبل مائة سنة للتاج الإمبراطوري من الهند. فقال أحدهما ان تلك الدرة ربما أنه قد صقلها صانع يهودي (كوهين) من عاصمة سومرية العراق (أور) مدينة سيدنا إبراهيم، أو من أورشليم وهو الاسم القديم لبيت المقدس. وقال آخر يبدو أنه يعلم شيء عنها، إنها الماسة نادرة قوية السطوع سموها أهل الهند أو فارس بيت أو كوخ النور، وانه سمع أن أي رجل يلمسها تحل عليه اللعنة! لما التقينا مع بقية الزملاء تحدثنا عن الماسة جبل النور، حيث غار حراء مهبط أول كلمات الوحي الإلهي، وحكايتها هي وتوأمتها الكوكب الدرّي التي قبعت في قصر الدرعية لسنوات، وكان أكثرهم مسرورين لمناقشة القصة وما يحيط بها من روايات غير مؤكدة. بعد ذلك بسنوات زرت مع الإبن عبدالله ووالدته وهو ما يزال صغير لندن، وقررت إعادة الاطلاع على تلك الجوهرة الثمينة، ووجدتها في قاعة أوسع قليلاً وأكثر ترتيباً، في برج الجسر حيث يسجن ويُعدم عتاة المجرمين في

القرون السابقة. واتيح لي ان اتحدث مع أحد العاملين في الإدارة، الذي أكد ان تلك الألماسة لا يشوبها أي نحس، والملكة آنذاك (اليزابيث) تلبس التاج منذ ثلاثين سنة ولم ترى أي مكروه. ولما ذكرت له وفاة والدها في سن مبكرة، وخلع عمها عن الملك قبل ان يُمضي سنة، قال انه لا يصدق ان لهذا علاقة بوجود كوهينور على التاج، وأضاف قائلاً ان هناك أكثر من الماسة بهذا الاسم، وواحدة ما زالت في تاج محل.

ثم أود سرد مشاهدتي لألماسة الكوكب الدري في ثمانينات القرن العشرين، حيث زرت منذ الخمسينات عدة دول ليس من بينها تركيا، فقد كان خاطري مشوش بما سمعته عن "الترك ووجوب تركهم" لما فيهم من بعد عن الإسلام زمن أتاتورك. كما كنا نرى بعض القرابة المصابون بأمراض مستعصية، يرسلون للعلاج في تركيا وإيران ويعودون في توابع، خلاف من يسافرون للعلاج في ألمانيا وبريطانيا. في بداية الثمانينات غدا فهد بن عبدالعزيز رحمه الله ملك على السعودية، وكان اثناء ولايته للعهد يدير كافة شئون الدولة، وعلاقة بلادنا مع تركيا يشوبها توافق حذر. فبسبب عدم انسجامنا مع الفكر الشيوعي للسوفيت، كنا نثمن دور تركيا كالدولة الوحيدة في حلف الأطلسي ذات الحدود البرية معهم، إلا ان سياسة تركيا ضد بعض شعائر الإسلام تؤذينا. وتجلى ذلك في انها قاعدة الخلافة الإسلامية لقرون، لكنها سارعت بالاعتراف بالكيان الصهيوني الغاصب لفلسطين، ثم بعد عشرين سنة لما أحرق اليهود المسجد الأقصى، وقفوا متخاذلين في أول قمة إسلامية ورفضوا التنديد بذلك، لأنهم جاءوا فقط للمساهمة في جمع تبرعات لإعادة بناء الجزء المحترق، ولا يريدون الحديث حول حقوق الفلسطينيين. لم يكن ذلك مستغرباً منهم فمنذ حملتهم لتتريك العرب، ومحاولة التهجير الجماعي القسري لبعضهم لسياء (السفربرلك) ومجازر مصطفى كمال باشا (المدعو أتاتورك) في حلب، وفخر الدين باشا في المدينة المنورة، ومشانق جمال باشا في دمشق وبيروت، وقولهم ان "العرب خيانات" كل ذلك أوغر صدورنا ضدهم. ولم نبالي بما يجري في بلادهم من انقلابات، وتحولات سياسية مرتبكة تنتهي كلها ببغضهم للعروبة وعزوفهم عن شعائر الإسلام، وهم من هدم عاصمة أول إمارة سعودية وقاد إمامها للمشنقة. ثم فوجئنا في إدارات تنمية الصناعة، بتعليمات ملكية تقضي بسرعة ترتيب زيارة على مستوى عال لتركيا، للمشاركة في اجتماع لتحويل لجنة التعاون الاقتصادي والتجاري الإسلامي، التي انبثقت من القمة الإسلامية الثالثة المنعقدة في مكة المكرمة، لتصبح منظمة إسلامية مستقلة عن البنك الإسلامي ومنظمة التعاون الإسلامي وكلاهما في جدة. وكانت التوجيهات ان يشارك في اللقاء المزمع عقده في إسطنبول، وفد غير عادي يتكون من ست وزارات، يمثل اثنتان منها وزراء واثنتان وكلاء وزارة واثنتان مدراء عامين. في الاجتماعات التمهيديّة بالرياض التي ترأسها وكيل الماليّة والخارجيّة، عملنا على تقصي خلفيات الأمر لنتمكن من التفكير والحديث والتقريب على بينة، وقد تولى وكيل الخارجية (مأمون كردي رحمه الله) إيضاح الموقف الدولي بإسهاب، وخلصته ان الاتراك بعد ستين سنة من الغاء اتاتورك للخلافة

الإسلامية، زادت الاضطرابات لديهم وتدهور اقتصادهم، خاصة بعد رفض أوروبا دخولهم في السوق المشتركة. فقد كان الكثير من مواطنيهم يعملون في الدول الغنية المجاورة، وكعادتهم القديمة من بذاءة التعبير وخشونة التعامل نبذوهم، مما أدى لقلّة الموارد المالية لديهم. في مطلع الثمانينات جرت أحداث كبيرة، أولها انقلاب قام به كنعان (الرئيس آنذاك) ازاح به غلاة اللادينيين، وسمح بقليل من شعائر المسلمين وجمعياتهم. ثم قامت حرب إيران والعراق مما أوقف انتاجهما من النفط، فزادت أسعاره من عشرة إلى ثلاثين دولار للبرميل، مما زاد من الفوائض المالية للعرب وعلى رأسهم السعودية. تلى ذلك وفاة الزعيم القوي للسوفيات (بريجينيف) مما أدى لاضطراب أحوالهم، وغدت الرئاسة للضعفاء فلم تكثر بهم الدنيا، خاصة بعد الفشل الذريع في برنامجهم الفضائي، فتدنت الحاجة للقواعد الحربية التركية. إلا ان سياسة خميني إيران الخرقاء جعلت البعض يعولون على الأتراك، الذين بدورهم قاسوا ويلات الأكراد الذين وفرت لهم الحرب مع العراق أموال وسلاح وافر، لم يستخدموه كما طُلب منهم لإضعاف الطرفين، بل استخدموه ضد تركيا بغرض انشاء وطن مستقل لهم. وسط تلك المعمة تفاقمت أوضاع انقرة، بعد ان نبذتها أوروبا ولم يؤيدها سوى أمريكا، البعيدة كثيراً ولا يفهم برلمانها الحاجة المتزايدة لمعاونتها.

أثناء المؤتمر الإسلامي الثالث في مكة، شعر الملك خالد بميل لدى بعض الترك للعودة لشعائر دينهم، ولما تولى الملك فهد الحكم بعد وفاته، رأى أهمية استعادة دورهم الإسلامي لمجابهة الدور الإيراني المفسد. تداولنا في اللقاءات التشاورية ما يدركه كلا الملكين (رحمهما الله) من أذى عظيم الحقه الترك ببلادنا، سواء ما قاموا به ضد والدهما في شنانة القصيم وغيرها، أو ما أصاب جدّهما (الإمام عبد الرحمن) في الأحساء، وقبله ما نزل بوالده (فيصل) والبلاد من إبراهيم باشا. ورغم ذلك فقد كان حبهما للإسلام واستعادة تركيا لحضنه، بحجم ملائم يجلب النفع للأمة ويدفع الضرر، أمر يطغى على كل مرارة أو غصة من أحداث القرنين الماضيين. كانت تلك القمة قد أوصت بتشكيل لجنة ضمن منظمة التعاون الإسلامي، تتولى تنشيط العلاقات التنموية بين الأعضاء، وبدا ان بعض المسؤولين الاتراك يتطلعون لجعل اللجنة منظمة مستقلة، يتولون توجيهها والإشراف على نشاطها. ولم يخف على أحد ان الغرض مزدوج، فسيحصلون على فوائد من الستين دولة الإسلامية (بعضها صغير) تعوضهم عن خسارة السوق الأوروبية المشتركة. والغرض الثاني هو الضغط على أوروبا، وافهامها ان تركيا العلمانية قادرة على قيادة المسلمين كما كانت قبل ذلك لعدة قرون، كما يتيح لها ذلك الحصول على تمويل ميسر عبر المنظمة والبنك الإسلامي في جدة. لقد تبين من مندوبي المالية والتجارة ان أسعار النفط تتراجع، حيث تمكن طرفي الحرب (إيران والعراق) خلال الثلاث سنوات الماضية، من تدبير سبل تصدير بعض بترولهم، كما ان زيادة انتاج نيجيريا والمكسيك تسبب في فائض سوقي أدى لانتكاس الأسعار، وبالتالي فمن غير المجدي إقامة منظمة جديدة، تتحمل المملكة العبء الأكبر من مصاريفها. أما

اللجنة فنفاقاتها محدودة للغاية، ويمكن أن تؤدي الغرض الرئيس عبر التنسيق بين أعضائها، وتحصل على المساندة الكاملة من منظمة التعاون الإسلامي. وبعد المداولة بيننا حول ذلك، اقترحنا ان تقوم الخارجية بالاستئناس بأراء بعض الدول الصديقة، حول تأجيل فكرة تحويل اللجنة إلى منظمة، وأن يتولى سمو وزير الخارجية ابلاغ المرئيات للمقام السامي، قبل انعقاد القمة الرابعة المقررة بعد شهور قليلة.

أعددت تقرير بينت فيه أهمية التعاون بين الدول الإسلامية، وذلك في جميع المجالات سواء الثقافية والاجتماعية والتقنية والعلوم والصناعة وغيرها، إلا ان التعاون الاقتصادي والتجاري يحظى بفرص عالية في النجاح، وبخاصة تبادل المعلومات المتعلقة بتطوير قدرات الإنتاج والتسويق والإدارة. وسيؤدي تقليل عوائق تبادل السلع والخدمات بين الدول الإسلامية، سواء كانت جمركية أو إجرائية أو مرافقية (طرق) إلى تطوير الأداء في كثير من المنشآت، أما تحسين وسائل تبادل السلع والخدمات والمعلومات، بين الدول فسيؤدي لرفع الكفاءة الإنتاجية، وتعظيم المنفعة من الاستثمارات الوطنية. ومع هذا يلاحظ كثرة المنظمات التعاونية بين دول الاقليم، فيوجد في بغداد منظمة التنمية الصناعية، وفي مصر مركز التنمية الصناعي بالمعادي وفي قطر منظمة الاستثمارات الصناعية، وعدد كبير من الشركات الصناعية المشتركة بين الدول العربية، مثل كنانة للسكر والصناعات الحربية وأخرى للمحاور وغيرها للأدوات الصناعية، لكن الجدوى والعائد المالي محدود. وفي ظل تناقص الإيرادات التمويلية لتلك العمليات المشتركة، التي تكسبت بأعداد كبيرة من العمالة غير المنتجة والسكرتيرات، وأصبحت منفى لكبار الموظفين المغضوب عليهم. فقد يكون من الأجدى التريث في احداث منظمات تعاونية جديدة، ويكتفى مؤقتاً بلجان تنسيقية محدودة الكلفة، ويسهل مراقبتها وضبط جدوى استمرارها. تم عرض التقرير على وكيل الوزارة والوزير، وأبديا الرضا عن أكثر ما فيه مع الإشارة للخرج السياسي، مع بعض الدول الطامحة في الحصول على منافع من القرابة والجيران، وأوصياني بضرورة البعد عن الحدة في الطرح! وأشرت أننا نقوم بالأداء في حدود مجالنا العملي، أما المجاملات فلها اشخاص أعرف بذلك وأقدر على ممارستها. مضت شهور وانشغلت بالعمل في مجالي التخصصي المحدود بنطاق بلادي، حتى خابرنى أحد الزملاء في وزارة اخرى، ليفيدني أن المبرقات (تلكس وفاكسميلي) تهتز من خبر ورد من المغرب، حيث قررت القمة الإسلامية الرابعة تأسيس هيئة تعاونية، يتولى رئاستها زعيم تركيا ومقرها أنقرة. سألت عما إذا كانت لجنة أو منظمة، فرد عاجلاً بأنها لاشك ستكون منظمة مستقلة، ما دامت بعيدة عن السعودية حيث مقرات التضامن الإسلامي، ولا بد أنها ستكون ضخمة تليق بأول هيئة إسلامية في مقر الخلافة العثمانية، لما سألت الله ان يوفق كل العاملين لنهضة الأمة الإسلامية، فرد علي بغضب إن الله لا يرضي عن المنكرات، وتساءل عما اذا كنت أعلم عما فعله كنعان في بلاده بعد الانقلاب، فقد

قتل وعذب وسجن وفصل عشرات الألوف ممن لم يرضخوا لرغباته، وتوعد الجميع بالمزيد من البطش لمن يعارضه.

بعد فترة كنت في أحد الاجتماعات الدورية مع الوزير ووكلائه وكبار معاونيه، وفي الختام سألني إذا كنت قد علمت بإنشاء "هيئة كومسيك" ثم بين إنه رغم عدم حضوره القمة، فقد علم في اللجنة العامة بمجلس الوزراء عنها، وكلفني للتعاون مع موظفي مكتبه للترتيب لمشاركته في المجموعة السادسة، التي ستذهب لتركيا لإنشاء تلك الهيئة. استغرق الأمر شهر في الإعداد حيث لدي أعمال كثيرة رأيتها أهم، ولما تحدد موعد السفر أفادوني أن الوزير سيتأخر لأيام، وعلي السفر مبكراً للمشاركة في التحضير للجنة الوزارية، وقد سعدت بمرافقة اثنان من موظفي مكتب الوزير ذوي الهمة والنشاط والذكاء، إلا انني لم أكن سعيداً بالذهاب لتركيا. في ذلك الوقت (منتصف الثمانينات) كانت تطلعاتي للسفر ومعرفة البلدان قد خبت، فقد زرت قبلها جميع قارات العالم، وقمت برحلات حول الكرة الأرضية من الجهة الشرقية والغربية، وسافرت بحراً وجواً بالجامبو جيت والكونكورد، ودرست وعملت في مشاريع صناعية في عدة دول كنت أطمح لمشاهدتها أو السياحة فيها، لكن تركيا لم يدر بخلي أن أزورها قط. فهل أنسى مقولة "اتركوا الترك" أو ما قامت به إسطنبول من مذابح ضد أهلنا في مكة والمدينة والطائف وبسل (عسير) والرس (القصيم) والدرعية، بل وصلت غطرسهم وبتشهم إلى وادي الفرع وبريك. صدمتني فور وصولي إسطنبول غلظة التعامل، فقد فوجئت والزملاء برغبة رجال أمنهم ان نفصح عما في حوزتنا من أسلحة! وتحذيرنا من الخروج بعيداً عن مقر السكن أو مقر المؤتمر، وأفدناهم أننا قادمون للقاء اقتصادي، لبحث أمور مالية وصناعية لكنهم لم يكثرثوا. فهما من أحد أعضاء القنصلية ان هناك اضطرابات مع الأكراد، الذين تظن الحكومة أنهم يزمعون تخريب كافة أنشطة الدولة، ونشر الرعب في نفوس الغرباء مثلنا، وقد أمرونا بالانصياع لأوامر المسلحين المرافقين لنا. رغم مستوى التلوث من المركبات المتهالكة، ووسائل التدفئة العتيقة والأدخنة، إلا ان المدينة بمعالمها التاريخية العريقة، وموقعها البديع على مرمرة قرب مضيق البسفور، بدت جميلة للغاية وهي تتربع على قارتين، لا تربطها جسور آنذاك بل سفن عبور صغيرة، ولا يعيها سوى غلظة أهلها بخاصة موظفي الدولة.

بدأت الاجتماعات التحضيرية وترأس وفدنا وكيل المالية، لكن شعلة النشاط كانت في وكيل الخارجية، الذي لم يأتي برفقته أحد من المملكة بل لفييف من موظفي القنصلية والسفارة في أنقرة. الوفد السعودي أكثر الوفود القادمة، وزاحمنا جيراننا على المكان (سوريا والسودان) وكل منهما شخصين ونحن ننوف على العشرة، والسكرتارية بقيت بعيداً عن طاولة المنتدى. أكدنا على وجوب بقاء الهيئة بصفة "لجنة دائمة" وضغط نفقاتها لأقصى حد، وأن تتولى الدولة المضيفة تدبير مقر مؤقت بكافة امداداته ومساندته، وتحمل المملكة والدول النفطية الحصص الأكبر في النفقات، وبقيّة بلاد الإسلام كل منها في حدود 1% ولقي ذلك تجاوب. أما تغيير صفة الهيئة من لجنة إلى

منظمة، فقد تبين ان تركيا قد حشدت أصوات عدة دول، لتؤكد ان رئيس الجمهورية لا يليق ان يتولى قيادة لجنة عامة، قام رئيس وفدنا بشرح وجهة النظر، المتفق عليها في الرياض لكن لما بدت مساندة قوية لفكرة المنظمة، تقدم مأمون كردي رحمه الله من المنضدة، وانطلق في مكبر الصوت يدافع عن وجهة نظر المملكة، وبلغة انجليزية متقنة وبكلمات موفقة يبدو أنها أعدت مسبقاً، ورغم ما فيها من معارضة للأغلبية إلا أنها على مستوى راقى من التهذيب واللباقة. استطال الجدل ولما تبين ان الأغلبية صامتة، لكن أكثر المتحدثين يؤيدون تركيا، طلبنا تأجيل النقاش للجلسة المسائية. لكن المداولة مع بعض الدول المجاورة لم تثمر عن شيء، وبعض الوفود لا خلفية لديهم عن الأمر ولا معرفة، لذا رأينا ان الأسلم طلب إحالة ذلك للقاء الوزاري الذي سيعقد بعد أيام، حتى يتسنى لنا مخابرة من قد يؤيدون وجهة نظر المملكة، وأبرقنا للرياض بشفرة السفارة عن ذلك. مع الطلب بأن يقوم الوزراء بالتواصل مع نظرائهم، لحشد تأييد أكبر عدد من الدول لوجهة نظرنا، ولتجنب حدوث فرقة في الاجتماع تتنافى مع ما أقره الملوك والرؤساء في بداية تلك السنة. جاءني رجل تركي مهذب يعمل في وزارة الصناعة، وكان قد دعا بعضنا لعشاء في مكان جميل بعيد شمال البلدة على درب البحر الأسود، وتساءل عن عضو وفدنا الكرديستاني (الأستاذ مأمون رحمه الله) الذي تجاوز الحد في طرحه، فقلت له انه مواطن سعودي الأب والجد حريص على عدم احراج الوزراء بمخالفة قرار القمة، فرد بالقول "أكراد خيانات" وآثرت عدم الجدل معه لما عرفته عنهم من غلظة ونحن ضيوفهم.

وصل وزيرنا ومعه وزير التجارة يصحبهما وزير الصناعة البحريني، وفي جلسة المساء حضروها مع الوكلاء الإثنيين وبعض المدراء العاملين، جرت مناقشة ما يلزم اتخاذه في اجتماع الغد. وكان الأستاذ (الشيخ) يوسف الشيراوي (رحمه الله) هو قطب اللقاء، بحكم سنه وثقافته العريضة وخبرته في الصناعة الكيميائية، وأقدميته كوزير منذ خمس عشرة سنة وعلاقته الوثيقة مع آل خليفة. وقد تحدث بجلاء عن وجوب عدم مجاملة التُّرك، ورفض دعوتهم لتحويل لجنة الكومسيك إلى منظمة، في مخالفة لقرار القمة الإسلامية. طال البحث حول تفاصيل ذلك، ورغبة القيادة العليا لدينا في استعادة تطبيق شعائر الإسلام في دولة الخلافة التي اسقطها أتاتورك. انبرى الشيراوي في حماس لتخطئة ما يجري آنذاك (منتصف الثمانينات) حيث ما زالت العلاقات مع مصر مقطوعة بعد زيارة القدس، ثم تأييد صدام في هجماته ضد إيران، مما جعل الخليج معتمد على الدول المسيحية لدعم أمنه، وهذا ما حدا بالقيادات الخليجية للتوجه نحو القوة الثالثة الكبرى في الجوار (تركيا) لكنه حذر بشدة، ان الأتراك ما زالوا ينتشثون بغطرستهم العثمانية عند التعامل مع العرب مع مذلة لأوروبا، ومثل على ذلك بما فعلوه مع آل خليفة وشعب البحرين في القرن السابق. ونصح بوجوب التصالح مع مصر وإيران وعدم التعويل على تركيا، فعارضه أحد الموجودين من نوي الفكر الجهماني المتطرف الذي شاع آنذاك، بالقول ان إيران مبغضة للمسلمين وتسبب الصحابة وترفض

السنة النبوية وتروج للفساد، ويكفيها " دكاكين المتعة الكاظمية" التي يفسدون بها شبابنا. ساد الصمت في المكان لكن الشيراوي عاجله بضحكة مدوية، وقال هل هي أسوأ من دكاكين بانكوك القذرة، حيث يطير إليها كل يوم آلاف الشباب، وهي غير متوافقة مع السنة التي أجازت "ما ملكت يمينك" كممارسة طاهرة. رغب وزيرنا (الزامل رحمه الله) عدم حدوث سجل حول ذلك، فقال يجب عدم الدخول في فتاوى متناقضة، ولدينا الختلان نسمع رأيه حول تلك الدكاكين، وبخاصة ان الجسر يشارف على الانتهاء! كنت في الطرف البعيد ومكبوراً في المجلس، ومع كرهني للفكر الجهيماني إلا ان طباعي تأبى إلا النطق بما أرى بعلمي وخبرتي أنه الصواب. ومع احترامي الشديد للشيراوي ودوره الصناعي في دول الخليج، وجهلي التام عن أسلوبه في الحوار، حيث لم يسبق لي مخاطبته قط لكنني استمعت له عن بعد، كما اطلعت على مرئياته في قضية شائكة جرت في شركة الباء، التي تساهم فيها المملكة ودعمتها بإلغاء مشروع المونيوم الجبيل، ثم ذهب بعض المتعلقين بها إلى لندن. كل ذلك جعلني اتردد في ابداء الرأي لثواني قليلة، لكنني سرعان ما عدت لطبعي في الحديث بأمانة وإخلاص بغض النظر عن المشاعر، وللتحوط آثرت ان أوجه نظري وكلامي لرئيس رئيسي، الذي دعاني لإبداء الرأي في ذلك الأمر الحساس. فقلت إن زواج المتعة يعتمد على أحاديث ضعيفة، وكلام عن الخليفة الراشد علي رضي الله عنه لم يثبت، أما ملك اليمين فبنص القرآن انه "مما أفاء الله عليك" وليس من الدكاكين. تندمت لسرعة تكلمي بما يؤول انه معارضة لمعاليه، وتوقعت أنه سيزمجر ضدي كعادته عندما يتعكر خاطره، لكنني لاحظته ينظر إلي برقة ومودة وقال مشيراً بسبابته والإبهام، ان الأمر له جانبان حيث الصحابة والتابعين كانوا يشتركون أمهات الأولاد من النخاسين، والثاني هل أنت من آل ختلان أهل اليمامة فأومأت برأسي مؤكداً، فرد بالقول انكم نوو أصول عريقة وجذور عميقة في البحرين، وصباح ذلك اليوم كان معه في مطار المنامة رجل منا. فسأل عن موطننا وأرومتنا فأخبرته ان منازلنا ومنتجعاتنا من رماح والحاير حتى وادي نعام ثم الأفلاج، ونحن من قبيلة سبيع العامرية فنبتسم وصاح إذن أبشر بالترفيح فالوزيرين سبعان أيضاً، فأجبتة إن الملك عبد العزيز رحمه الله "أنهى العشائرية وجعلها سعودية" سواء لكل من يتبعه. للحظة واحدة دار في ذهني ان الاثنان من سبعان عزيزة، وآل زامل وآل سليم من فرع واحد، وكلاهما أساتذتي ولهما علي فضل التعليم، منذ أكثر من خمس عشرة سنة ولم ابحت مع أي منهما قط مسألة العشائر، حيث نشأت في مجلس أبي الذي يكره التحيز القبلي، ويتعامل مع الجميع حسب أخلاقهم وعلمهم. لكن وزير الصناعة كان لأمر ما يخصني (مع المخلصين) بتقدير جهودنا، أما وزير التجارة فممن غادرت الجامعة لم أشاهده إلا في ذلك اللقاء، وما زلت أذكر بغصة أنه وقف ضد ترشيحي وأنا حاصل على مرتبة الشرف، وقدم علي متخرج آخر أقل مني درجات، وذكر لي رجل ان معالي الدكتور السليم كان يعمل مستشار بدوام مسائي في وكالة العمل.

تنبهت سريعاً من تلك الشطحة الفكرية على صوت أحد الجالسين، يقول للشيراوي ان العثمانية لم يحتلوا البحرين، ولم يفعلوا فيها ما اقترفوه في الدرعية، فرد عليه بل مثل ذلك وأكثر، فإن حكام البحرين (آل خليفة) كانوا يسيطرون على مناطق واسعة في شرق جزيرة العرب، وابن رحمة بنى حصن الدمام العتيد بأمر البعض منهم، وابراهيم باشا أرسل حشود من قواته للبطش بشعبنا آنذاك. وتحدث آخر مؤيداً نظرة الشيراوي للترك، بأن الرئيس الحالي لهم لما استولى على السلطة قبل أربع سنوات، ارتكب مجازر ضد معارضي انقلابه الدموي، وكيف نثق به الآن ليتولى رعاية التعاون الإسلامي، لكن وكيل الخارجية نوه بأن الرئيس كنعان بعد سنتين من توليه الحكم، قد بدل كافة الطاقم التابع له والذي تسبب في تلك المآسي. وقد أصبح طورغوت رئيس للوزراء وهو من رجال الدولة والأعمال الجيدين، وستلتقون معه غداً حيث سيفتح الاجتماع الوزاري، وهو من المتمسكين بشعائر الإسلام وناجح عملياً. انهينا اللقاء قرب منتصف الليل، وكانت الخطة أن يكون الشيراوي أول المتحدثين، شاكرًا لمضيفينا رعايتهم الطيبة، مع الحث على تركيز اللقاء لوضع تنظيم جيد للجنة، لتتمكن من رعاية التعاون الإسلامي في المجالات الاقتصادية والتجارية. مع التركيز على الصناعة لدورها المحوري في التنمية الاقتصادية، وإعطاء أولوية للدول الإسلامية الأقل نمواً لتتمكن من تسريع وتيرة نهضتها وتلحق بالركب، مع التمني بعدم بحث أي أمر قد يتعارض مع قرارات القمة. وعلى أن يلي تلك الكلمة مداخلة من رئيس الوفد السعودي (وزير التجارة) يثني فيها على ما أورده الوزير البحريني، يتبع ذلك اتفاق مع ثلاث دول متضامنة مع فكرة دعم اللجنة، ووضع لوائح مفصلة لتحسين نظام عملها، مع تلافي التدخل في نصوص قرارات القمة الإسلامية. وكانت الخطة بذلك أن يخرج اللقاء بنتائج إيجابية مفيدة لاقتصاد الدول الإسلامية، ويتجنب احداث شرخ حول طبيعة عمل اللجنة ومستواها الإداري، الذي يجب ان يبقى كما أقرته قمة المغرب. حضر رئيس وزراء تركيا الجديد (أوزال) لافتتاح المؤتمر لوزاري، ولأول وهلة بدا لي شخص صريح ومخلص، ولاحظت مظهر شواربه وبعض الشعر غير المنسق في وجهه، خلاف بقية زملائه حيث غالبيتهم أمرد. قام بالترحيب بحرارة وأشاد بكافة وفود الدول الإسلامية، وأدار الجلسة الافتتاحية بكفاءة ودقة عالية وتنظيم، ثم عهد لوزير الاقتصاد اكمال إدارة بقية الجلسات. في يوم الجمعة تقرر اتاحة وقت للوفود لأداء الصلاة، وتذرع البعض برخصة السفر للبقاء في الفندق الفخم، أما الوزير الزامل فقرر الذهاب لجامع السليمانية، في وقت لم تكن الصلاة تقام جهاراً كما هو الحال الآن، وقد استأذنت معاليه أن نذهب بعدها لجامع السلطان أحمد (الأزرق) ثم طوب قابي. ولم يكن ذلك سهلاً بسبب الاحترازاات الأمنية، ورافقنا حارس مسلح وكذلك كان السائق، وبعد الصلاة خرجنا من الجهة الغربية، حيث ساحة صغيرة لإعدام بعض المجرمين أو المناضلين ضد الطغيان العثماني، ثم تحولت لساحة مطعم مكشوف، وفي الجهة الشمالية بقايا سجن خرب، ومنازل حجرية للعسكر وأطلال محلات تجارية. ثم سارت المركبة عبر شوارع إسطنبول القديمة الضيقة حتى المسجد الأزرق البديع، ومنه

تجولنا في الساحة المقابلة للبوابة الهمايونية، حيث كانت توجد منصة الجلد وتنفيذ الإعدامات، قرب مسجد "الحاجة صافية" أو متحف "هايه صوفيا" كما حوله أتاتورك بعد الغاء الخلافة الإسلامية. لما دخلنا قصر السلاطين لعدة قرون، قبل ان يقام "دولمة بهجة" لم نكتث بالمعازف أو غرف الملابس، بل توجهنا مباشرة نحو جناح التراث النبوي الشريف.

هناك سمعنا رجل يتلو القرآن على الطريقة القبورية، يجلس متربعاً على دكة خشبية ويهز بدنه للأمام والخلف، وتساءل الوزير يرحمه الله عما اذا كانت الجبة والسيف ذو الفقرات والنعال، مازالت باقية منذ أربعة عشر قرن على تلك الحالة، أجبته أننا نفترض الحرص والأمانة في العباسيين لخمسة قرون، ثم المماليك لثلاثة تلاهم العثمانيون لخمسة أخرى. لكن لما وصلنا مكان عرض الشعرة النبوية شكك في ذلك بقوة، وخاصة ان المحلول الكيميائي المغموسة فيه لا بد ان يؤثر عليها، فقلت ان الله قد قرر خلود أجساد أنبيائه وهذه منها، لكني مثله نظرت في ذلك على ضوء ان بعض التابعين كانوا يتبركون بالبقايا النبوية، ويشربون منقوعها ويأمرون أن تدس في أكفانهم. لكني أدت البحث حول رداءة العرض، وبخاصة ما يتعلق بميازيب الكعبة المشرفة، التي تآكل اثنان منها وأكلت الديدان شيء من خشبها، أما الغطاء الذهبي فما زال لامعاً. ثم نظرت نحو المجلوبات التي جاء بها فخر الدين باشا، ونقلها من داخل المرقد النبوي بالقطار نحو إسطنبول، بدعوى حمايتها من لصوص الدولة الهاشمية، الذين قرروا طرد العثمانية من بلاد الحرمين. كانت المعروضات تشمل خناجر وأواني عطرية وشمعدانات، كلها مرصعة بالياقوت والزمرد والزبرجد واليسر واللؤلؤ والأحجار الكريمة والجواهر، مصنوعة من الذهب والعسجد ومهداة من حكام وتجار، من الحجاز والشام ومصر والمغرب والسودان. لكن أجملها ما جاء من الهند الكبرى قديماً شاملة أفغانستان وايران، أما جوهرة المكان فقد كانت "الكوكب الدرّي" التي سبق ان كانت في قصر الطريف بالدرعية، وبقيت هناك نحو خمس سنوات حتى اصطحابها معه الإمام عبدالله بن سعود، لما نفي لمصر حيث سلمها لواليتها محمد علي الذي خدعه، وأقنعه بالسفر لإسطنبول ليقدمها بنفسه للسلطان هناك، الذي رفض لقائه وأمر بأخذها منه وأعطها لبنته في زفافها، ثم أعيدت للحجرة النبوية لقرن من الزمن، ثم انتزعتها والي المدينة المنورة التركي لتحفظ في ذلك القصر القديم الذي تحول لمتحف سياحي! لكن ما لاحظته هو ان الألماسة قد أصقت على طبق (صحن) ذهبي صغير، له شكل درع مقوس يتناقض مع ما سمعته في المجلس بأنها كانت تطرز في أعلى عمامة الأمراء سابقاً، وذلك الوعاء يجعل من غير الممكن تماشيها مع العمام. أثناء عودتنا لمقر الإقامة أبدى معاليه قليل من الاهتمام للأمر، وقال إنه سيسأل عن ذلك بعض الناس في الرياض، لكنه آنذاك حريص على فتح أسواق تركيا لمنتجاتنا البتروكيمياوية، حيث حاربتها بعض الدول "بدعوى الإغراق" حيث يقولون ان هناك دعم غير مشروع لمنتجاتنا، مما يؤدي للضرر بصناعتهم متناسين الميزة النسبية، حيث يتوفر البترول

في بلدنا بسعر منخفض، كما تتوفر المياه في بلادهم بكلفة منخفضة، ولا يعتبرون ذلك دعم أو إغراق تنافسي. في المساء جلس أعضاء الوفد السعودي والبحريني لمناقشة أمور التعاون الإسلامي، وبعدها تطرق الزامل لزيارتنا للمسجدين الكبار، ثم الساحة الهمايونية ومتحف القصر القديم، ثم أشار لحال "ألماسة الدرعية" وبينت بإيجاز رأيي فيما جرى لها، وهي أول مرة أشاهدها فيها بعد أن استمعت لقصتها لأكثر من ربع قرن. تحدث الشيراوي عما يعرفه عنها من السماع من بحارنة القطيف، ذوي العلاقة مع المراجع الإيرانية، الذين يقول بعضهم ان الألماستين أصولهن فارسية منذ قبل الإسلام. ثم أشار انه التقى بالأمس رجل تركي يعرف قليل من العربية، ويتقن الإنجليزية التي لا يعرفها جيداً حتى بعض العاملين في الفنادق، واقترح دعوته لذلك اللقاء حيث لديه خلفية غزيرة عن الدولة العثمانية وسلطينها.

لما حضر الرجل كان معه قرينه الذي لا يعرف العربية أو الإنجليزية، لكنه على حد قوله خبير متعمق في تاريخ الخلافة العثمانية، وهو الأمر الذي أكره دراسته او البحث فيه. سرد لهما الشيراوي نبذة عن مسألة أخذ موجودات المرقد النبوي، التي قام بها فخري باشا عام 1917م ونقلها للمتحف، ثم تكلم عن الماسة الكوكب الدرّي وتوأمتها في لندن. انتفخت أوداج الرجل وانطلق يزمجر بالتركية ورفيقه يترجم لنا زبدة الكلام، وبدا ان الرجلين يحسبون ان كافة الجالسين مع الوزير البحريني هم مواطنون مثله، ولم يتبين لهم ان ذلك المكان هو مقر الوفد السعودي وثلاثة فقط من البحرين. انطلق الرجل يحدثنا عن ثلوث الكذب والظلم، المتمثل في "خوارج الوهابية" السعوديين الذين سرقوا نفائس الحرم النبوي، وباعوا أكثرها بأبخس ثمن لكن السلطان محمود أعاد شرائها، ثم قدم كبير اللصوص السعوديين للمحاكمة الشرعية، واعتمد شيخ الإسلام قرارها بنزع المجوهرات منه وشنقه مع إثنين من أعوانه. ثم عرج على "أشرار الهاشمية" الذين انعم عليهم السلطان سليم بسدانة الحرم المكي فخانوا الأمانة، وقتلوا جنود الخلافة وهم متعلقون بأستار الكعبة المشرفة. وثالثهم "روافض شيعة الفرس" الذين روجوا للكذب والدعاوى الباطلة، ضد خلفاء المسلمين لعدة قرون، وادعوا أنهم من أرسل الدرر الثمينة، للمرقد الشريف حيث جثمان المصطفى عليه الصلاة والسلام، وصاحبيه حضرة أبوبكر وعمر رضي الله عنهما، والجميع يعلمون عن بغض الروافض للثلاثة، ويقدمون عليهم أناس مجهولين يدعون أنهم من نسل حضرة علي، الذين خان جبريل الأمانة ولم يسلمه رسالة النبوة! قال الرجل ان هناك الكثير من الأكاديميين في تلك الروايات، ومن أبرزها تخوين فخر الدين باشا الذي نعتبره من أكثر ضباط الخلافة شرف وأمانة، وحرص على مقتنيات المسلمين ومصالحهم، ودافع عن اسلامبول ضد هجمة البلغار الذين يريدون تحويل الجوامع لكنائس، كما صد ببطولة هجمات اليونان على الدردنيل وجزر شرق مرمرة. أما الخونة واللصوص فهم من يروجون للكذب، فقبل تلك السنة بشهور انقلب شريف مكة على أولياء نعمته، وغدر بعهد أجداده مع السلطان سليم قبل أربعة قرون، وبينما نحن نحارب النصارى في

البلقان، إذا بالخائن يهاجم جنود السلطان في الطائف ويقتلهم غدرًا، وبعد أيام هاجم قلعة مكة ثم القشلاق ولم يراعي قداسة الحرم، وقتل عساكر خليفة المسلمين طاعة لأوامر الانجليز. ثم أرسل أولاده ليهاجموا الحميات التركية على الساحل، التي وضعت لتدفع عن الحرم أطماع الصليبيين وهزموهم بالغدر والخيانة، ثم اتجه أحد أولاده للمدينة المنورة. ولما اشتد الحصار عليهم ونفذت المؤونة، قرر الباشا ترحيل بعض الأهالي الجوعى للشام، ثم ادخل عربة قطار من العنبرية لجوار الحرم، وقرر إرسال محتويات الحجرة النبوية لمكان آمن، بعد ان أعد بيان حصر ووصف مفصل لكل قطعة. وبعد حصار لشهور طويلة عانى فيه الناس ويلات الحصار، وقام أبناء الشريف بالتعاون مع جواسيس الانجليز بنسف سكة القطار، اضطر لتسليم البلدة وقبل مغادرته للحرم، قدم لقائد الحصار نسخة كاملة من بيان حصر الموجودات، التي ما زالت مصانة عن العابثين واللصوص. أما الكذبة الأخرى فهي عن الألماسة الفاخرة، التي أمر السلطان احمد بوضعها كعلامة على موضع قبر الرأس الشريف، والتي اشتراها خصيصاً بمبلغ ضخم من حر ماله، ولم يهداها أحد من الهنود أو الفرس أو الأفغان، بل اشترى وجيء بها من بلاد الروس؟ وقبل أكثر من قرن ونصف جاء سعود "كبير خوارج الوهابية" للمدينة، غازياً مع عدد كبير من اللصوص فقتلوا أهل الحرم وسرقوا موجودات القبر، لكن السلطان محمود استردها منهم عنوة، ثم أعادها لموضعها أعلى الضريح الشريف. قاطعه الشيراوي وهو رجل "بدنه يجزئ عن سبعة" بإشارة من يده، وقال انه ضيف في مقر الوفد السعودي، وكلامكما يبدو مناقض للواقع وبين رأيه في بعض ما قيل، لكن الوزير الزامل بدا ساخطاً وقال ان أحد منسوبيه لديه ما يقول وأوماً باتجاهي.

كنت غاضباً بشدة مما قيل بحق بلادي وأهلي، لكني تماكنت نفسي لما لاحظت التركيين يتراطنون ووجوههم شاحبة، ووجهت حديثي لوزيرنا فقلت ان الأمر له ثلاثة جوانب. أولها ان قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام ليس ضريح، وليس فوقه مبنى رخامي لتوضع عليه الألماسة، ولا يشبه الضريح الذي شاهدته في جامعهم، فقد نُهي عن جعل القبور في المساجد. وثانيها ان فخري باشا يعرف في كافة ارجاء العالم أنه مجرم، فقد ارتكب الفظائع ضد سكان المدينة النبوية، ونكل بالكثير منهم وجوعهم وأرغمهم على مغادرة منازلهم، والقول انه دافع عن ارض الإسلام ضد البلغار واليونان غير صحيح. حيث يعرف الجميع أنه بقي محاصراً في المدينة شهور طويلة حتى انتهت الحرب، وجرى الصلح بين المانيا والمجر وتركيا، والحلفاء (لندن وباريس وروما وروسيا) ولما استسلم للشريف عبد الله بن الحسين أكرمه، ورفض القبض عليه أسيراً لحين إعادة المنهوبات كما أوصى البعض، بل زوده بالركائب والطعام ليتجه شمالاً لبلاده. ولما رآته بعض العربان كادوا يفتكون به، لقاء بطشه بهم واخراجهم من بلداتهم وسرقة ممتلكاتهم، لكن شيخ الحويطات "عودة أبو تايه" أجاره منهم وأوصله لفرصة الوجه، وفي السفينة عرفه البعض وأخبروا إدارة الانجليز في القناة، فقبضوا

عليه وسُجن في مصر ثم رُحل لليونان، ولم يعد لتركيا إلا بعد سنوات ولم يشارك في الدفاع عن أرض المسلمين بل هو شر عليهم. شاهدت يد الزامل تشير لي بالهدوء، لذا قطعت حديثي عن فخري الخائب، والذي عرف والدي الكثير عن فظائعه من الأنديجاني، لما نُقل للمدينة بتوجيه من الشريف حسين رحمه الله. فسارعت للانتقال للجانب الثالث وهو ألماسة الكوكب الدرّي، فقلت ان من الموثق أنها جزء من ألماسة الدم المغولية" والادعاء أنها روسية لا أساس له. كما أنني أعلم ان السلطان سليمان القانوني (نطقته بالانجليزية ذا ماكنيفسنت) لكي يفهما، قد وضع نظام حسابي دقيق للدولة قبل أن يولد السلطان أحمد (الأول) بعشرات السنين، ولم يوجد في السجلات ما يفيد بانفاق ذلك المال الطائل، سواء من خاصته أو غيرها، بل أهداها الهنود للمرقد الشريف بإذن من خليفة المسلمين! الذي مات بعد شهر من عبثه بها؟ لما توقفت توجه الشيراوي لهم بحديث رقيق، خلاف ما يكون عليه حينما يشتط به الغضب، فقال هناك مسألة أخرى وهي "سوء المشاعر" لدى بعضكم، فكلما تحدثنا معكم نسمعكم تحملونا وزرنا أصابكم من كوارث، ليس للعرب والمسلمين فيها يد بل تنبع من الثقافة الأتاتوركية. إن ليس فينا من يجحد دوركم في دفع غائلة الحملات البرتغالية الصليبية على خليجنا قبل خمسة قرون، لكنكم قبل هزيمتكم في الحرب العالمية، عانيتم من هزائم متكررة منذ كسر حصاركم على فيينا، وبدلاً من الاستعانة بالمسلمين في حروبكم ضد النصارى، استدرتم علينا وأنقلتم كاهلنا بضرائب باهظة للانفاق على خسائركم، حتى عجز المسلمون عن دفعها، فزادت قسوتكم ونكلتكم بأهل الإسلام، مما اضطر البعض للدفاع عن أنفسهم بالهجوم على عساكركم، والبعض الآخر لم يجد بد من الاستعانة بالأجانب الذين كانوا أقل منكم بطشاً، لذا نأمل ان لا تحملونا نتائج سياستكم. تكلم آخرون في المجلس عن الغطرسة التركية بكلام غليظ، لا يليق ان يخاطب به الضيف وإن أخطاء.

فوجئت بالشيراوي يقطع حديثهم بينما التركيان قابعان في صمت ووجوم، لما يقال عنهم في بلدهم من هؤلاء العرب الغرباء، ثم قال انه رغم مرور أكثر من نصف قرن على سقوط إمبراطورية آل عثمان، فما يزال في مواطننا جميعاً شيء من المرارة، وبدلاً من حصرها في الصدور يفضل المكاشفة عنها لتنقية العلاقة المستقبلية. ثم تحدث بلباقة عن أهمية إزالة المشاعر السلبية الماضية، وفتح الطريق لعلاقة إيجابية خالية من المشاعر التي عفى عليها الزمن. ثم التفت الشيراوي نحوي وقال لهم هذا سعودي من قلب جزيرة العرب، ولعشيرته جذور عميقة في البحرين ومناطق أخرى، ثم تساءل عما إذا كان لدي ما أضيفه عن علاقة العرب والترك، ونحن ضيوف عليهم في بلدهم وهم ضيوف في مقرنا. فقلت ان معاليه تحدث بما يكفي ويفيض، لكن يبدو ان الطعام لم ينتهي اعداده فأصر علي ان أدلي بدلوي، أشرت إلى انني سأكتفي بموضوع واحد، ولم أعلم عنه من المطبوعات أو أقوال أناس مجهولين، بل سمعته من والدي رحمه الله. فقد تحدث في مجلسه قبل ما يزيد عن ربع قرن، عن العلاقة مع تركيا في نهاية

الخمسينات {آنذاك} حيث قام رئيسها مندريس بعرقلة توسعة الحرم الشريف، وكان والدي يتولى رئاسة اللجنة التنفيذية للتوسعة أثناء سفر ولي العهد، إضافة لعمله كأمين للعاصمة مع مهام رسمية أخرى. وقد قص على مجالسيه أنه ووالده كانوا في القصيم، بعد أن حرر الملك عبدالعزيز عنيزة ثم بريدة من أعوان آل رشيد، الذين قام كبيرهم (الجنازة) باستدعاء قوات عثمانية من البصرة، لتساعده في استرداد سيطرته على القصيم. كانت تلك العساكر برئاسة المشير فيضي باشا، الذي رغم قسوته الشديدة إلا أنه كان يراعي الحكمة في تصرفاته، لذا فقد طلب عقد لقاء مع الإمام عبدالرحمن، ولما علم أنه في الرياض قرر اللقاء مع ولده الأمير. جرى نقاش بينهما فتأسف فيضي على ما يحدث بين العرب من حروب، وكان الأجدد بابن سعود وابن رشيد الكف عن الاقتتال، وازعاج الدولة العثمانية أثناء نضالها ضد الاطماع الصليبية. ثم ذكر الباشا أن دولته هي من وقفت ضد الغزو البرتغالي على شرق بلادهم، ثم تجرأت بإرسال اسطولها لغزو جدة توطئة لدخول الحرمين، ولولا قدوم السلطان سليم بجيوشه لحدث الأسواء، فقد تمكن من دحر البرتغال ودفع أذى الصليبيين، فرد عليه عبدالعزيز ان الله حق على نفسه أن ينصر المؤمنين، وكان أسلافنا على ثقة في الله "بكم أو بدونكم" سبحانه. ثم قدم الباشا خطاب من الباب العالي بتفويضه لإيقاف القتال في القصيم، وأنه التقى في البصرة بعدد من تجارها ذوو الأصول القصيمية مثل الشبيلي والبسام والفاضل، وأفادوه ان الطرفين يدينون بالولاء لمولانا خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد، لذا فهو سيسعى للصلح بين آل سعود وآل رشيد. قبل الملك (الأمير آنذاك أو الشيوخ) الخطاب وأفاد المشير بالسمع والطاعة لسيدنا خليفة الإسلام في غير معصية الله، وأكد ان ما يقال انهم خوارج عار من الصحة. ثم أكد أنه منذ قيام إمارتهم في الدرعية، منذ نحو مائتي سنة وهم على العهد لولي الأمر، ويوردون خمسي العوائد له كل سنة، سواء عن طريق مكة أو البصرة. ولما اتسعت امارتنا تمكنا بفضل الله من تأمين طرق الحج والتجارة والزيارة، لم نطلب مقابلها بيضة واحدة أو فشكة، ولسنا مثل الزعفة الذي يتقاضى أموال طائلة وسلاح وذخيرة، لقاء خفارة طريق كربلاء المدينة. ولما أمرنا الناس في الحرمين بالكف عن المنكرات غضبوا منا، وأنت يا باشا نعرفك رجل ورع وأمانة، فهل ترضى بعبادة القبور وممارسة الفجور وشرب الخمر؟ لكن أهل المنكر والمكيدة كذبوا علينا. وجاءنا طوسون ثم إبراهيم بعساكرهم، وفعلوا المحرمات من سفك للدماء ونهب للأموال وهدم للمباني. أما بالنسبة للصلح فربما أنك تعلم ان جدي فيصل هو من أسند ولاية حائل لآل رشيد، وكانت قبل ذلك في قوم آخرين حدث منهم خطاء فنز عنا ولايتهم، وجدُّ ابن متعب كان من أخلص العمال وأعدلهم، لكن بعد وفاته افتتن أولاده بالدنيا والمناصب، وقتل بعضهم البعض ومارسوا أعمال خسيصة يترفع عنها السوق، فما بالك بمن هم ولاة أمر يفعلون ذلك مع قرابتهم فماذا يرجو منهم العامة؟ وقد عاونتموهم فتجرأوا على سادتهم وأولي النعمة عليهم، فقام عم هذا الخصم بالهجوم على إمام المسلمين، وأخرجوه من بلاده مع نسائه وأطفاله لسنين. ولما طلب منا أهل البلاد العون ضد الغطرسية استعدنا عاصمتنا، ثم استدعانا أهل بقي المناطق

لنخلصهم من ويلات حليفكم، وها نحن قد حررنا أكثر مدن القصيم من أعوان ابن رشيد، فوجدناكم تهبون لنجدته ولم نركم يوماً تدعمون الحق، بل تقفون دوماً مع الباطل مما جعل الناس يكرهونكم. إذ لم يعرفوا عنكم التعامل بالرفق والمودة، وهذا ما جعلهم يبغضون ولايتكم ويعادونكم، وأنتم لا سياسة لديكم سوى البطش. ثم أردف قائلاً إننا نغار على الإسلام والمسلمين، ولو تعاملتم مع العرب بالحسنى لكانوا خير عضيد لكم في حربكم مع النصاري، لكنكم اخترتم أسلوب القهر والعداء ضد المسلمين، فأصبحوا يرون أهل الكتاب أقل منكم ضرراً على البلاد والعباد. وإنني أثق ان والدي الإمام كان سيقود مائة ألف من المجاهدين للقتال معكم، لا يريدون جزاء ولا شكورا بل مرضاة لله وحده، لكن ها أنتم تأتون إلى بلادنا لتدعموا البيعة الخارجين على ولاية الأمر، وتثيروا الفتن وتعاضدوا المجرمين وتثيرون الحزازات بين العرب، بدعوى الصلح بين الجاني والمجني عليه، لذا نود منكم ان تتركونا وشأننا ولا تؤيدوا أهل الفتنة، وتتفرغوا لمحاربة عدوكم وستجدوننا خير حليف لكم.

لما فرغت من سرد ما جرى بين الملك عبدالعزيز والمشير فيضي باشا، تبين لي ان التركيين لم يبالوا بذلك، وكأنهم على عقليتهم القديمة ان "العرب خيانات" وأنهم سبب نكبة الدولة العثمانية. لذلك أضفت القول إنه خلال ثلاث سنوات بعد ذلك، كان ابن رشيد قتيلاً على رمال الروضة في حادث غريب، والطورانبيون خلعوا الخليفة عبد الحميد، وفيضي عاد لليمن للبطش بالذين أيدوا حركة يحي حميد الدين المتوكل. ثم ساد الصمت لكن أحد الحضور سارع بشرح المزيد عن العلاقة العربية التركية، بعد اسقاط اتاتورك للخلافة ونبذ الشرائع الإسلامية والكتابة بالحروف اللاتينية بدل العربية، وكاد ذلك يستمر طيلة الليل لولا ان وجهت الدعوة لتناول الطعام. أما من جهة المؤتمر الذي حضرنا للمشاركة فيه، فقد أخذني التفكير لمسمى تلك اللجنة، ولماذا هي اقتصادية وتجارية فقط، فإن الاقتصاد غدا مصطلح واسع يشمل كل ما يتعلق بالأموال، ونحن في وزارة الصناعة فلماذا نشارك إذا كان التعاون يقتصر على التجارة؟ أعددت ورقة موجزة عن بقية القطاعات الإنتاجية، ودورها في تنشيط التعاون الإسلامي الاقتصادي، ركزت فيها على الدور المحوري لقطاع الصناعة، ودوره الفعال مع قطاعات التجارة والزراعة والتعدين والمصائد والرعي والخدمات. وحيث ان مستويات النمو بين الدول الإسلامية شاسعة التباين، فإن أفضل معيار للنمو هو مساهمة الصناعة في الناتج المحلي الإجمالي، فإذا كان فوق 20% فهي دولة ناهضة، أما نسبة 10% فتعني الوسطية ودون ذلك التخلف. لذا فمن المجدي ان تتولى لجنة فرعية تنشيط التعاون بين المجموعة الناهضة وتلك المتخلفة، على ان يتم ذلك ببرامج تنموية تشمل تأسيس مناطق صناعية، توفر مقرات لمنشآت إنتاجية مزودة بكافة الخدمات، مع مقر لتدريب الأيدي العاملة الوطنية في مجال التشغيل والتسويق والمحاسبة، وورشات لخدمات صيانة وتطوير المصانع. كما يلزم توفير صندوق لتمويل جزء من نفقات إقامة المنشآت وتشغيلها، تتوفر له السيولة من مالية الدولة نفسها، إضافة لمساهمة من الدول الإسلامية

ذات الفوائض المالية، مع التوسط للحصول على تمويل من الجهات الدولية الأخرى. وعلى ان تكون تلك المناطق بؤر استثمارية، ونماذج للعديد من المنشآت التي تساهم في تنمية ورقي إدارة بقية القطاعات الاقتصادية في الدولة. تناقشت مع بعض الزملاء حول أهمية قطاعات أخرى، لدى الدول الإسلامية التي تعتمد مواردها على الزراعة أو التعدين وغيرها، وكان مذهبنا وجوب احداث لجان مؤقتة في الكومسك، تتولى تنشيط الاستفادة من تلك الموارد. فالدخل من "مجال الهورتيكلتشر" مثل الخضار والفواكه والزهور والبذور، يتطلب توفير مخازن مكيفة أو مبردة في منافذ التصدير، لتحسين الجودة والسعر، وضربت مثلا على ذلك بنجلاديش التي لم تكن مرافقها ملائمة في نهاية السبعينات، ويمكن لتلك اللجنة المساعدة في تدبير التمويل لتشبيدها، ثم التدريب على تشغيلها وصيانتها. أما الدول الإسلامية المعتمدة على الدخل من حفریات استخراج المعادن (مثل موريتانيا آنذاك) فتستطيع اللجنة معاونتها في تمويل شراء معدات تركيز الخام، سواء (الهيمايتيت) والبوكسايت (المونيوم) أو الفوسفات (أسمدة) فبذلك تقل تكلفة الشحن ويزيد السعر للمنتج. أما الدول ذات الموارد من اللحوم والأسماك، فيلزم معاونتها لرفع قيمة منتجاتها، إذ يلزمها معدات التقطيع والتغليف ثم التشيع والنقل المبرد، لترويج بضائعها في السوق العالمية بجودة مقبولة وسعر تنافسي. ولما تداولنا بشأن تنظيم أعمال اللجنة، وجعلها على كفاءة عالية وكلفة منخفضة، ذكرت للزملاء أنني شاركت قبل سنوات (سبعينات م) في دراسة انضمام المملكة لمركز التجارة والتنمية التابع للأمم المتحدة (اونكتاد جنيف) كما شاركت في اجتماعها في سويسرا. وقد كانت آنذاك مشاكل استخدام التجارة في الضغط الحربي (معركتي 67+73 م) أو قيام المنتجين بفرض أسعار احتكارية، وممارسة الكارتل خفض الإنتاج لرفع السعر، وبلادنا تريد استثناء البترول من تعليمات ميثاق التجارة لخصوصيته. لكننا آنذاك (منتصف الثمانينات م) واجهنا عدة عقبات في تصدير البتروكيمياويات، وكان يلزمنا دخول اتفاقية الجات لتفادي الرسوم الباهظة على منتجاتنا. فقد كانت كثير من دول الغرب تدعي أننا نمارس الإغراق التجاري، ونقدم معونات جملة لمصانعا يجعلها تبيع بأقل من تكلفتهم، مما سيؤدي لإفقال مصانعهم بمخالفة لميثاق التجارة الدولية. متناسين تماما الميزة النسبية لبلادنا وتوفر غاز البترول بتكلفة متدنية لدينا، لكنهم رفضوا ذلك وفرضوا رسوم باهظة على منتجاتنا، تخالف ميثاق التجارة ولا تنسجم مع نصوصه المؤكدة على تقليل العوائق الجمركية. لقد بدأت شركة سابك في انتاج البتروكيمياويات البسيطة، لما أقتع عملاق الصناعة (القصيبي) رحمه الله القيادة بنقل خطط المشاريع التي ما زالت على الورق منذ سنين لتكون تحت اشرافه، لكنه كوزير صناعة لم يكن لديه سوى وكالة الصناعة في وزارة التجارة، ومؤسسة الكهرباء ومركز التنمية الصناعية. لذا فقد طلب تحويل الخطط من بترومين للمركز عاجلاً، حيث باشر نائب المدير (الزامل) في تجهيز فريق متكامل لمراجعة الخطط القديمة، والبدء في التنفيذ على أسس قوية. ثم لأمر معينة تقرر انشاء شركة مختصة تتولى ملكية وإدارة وتشغيل المصانع الجديدة، ومنحت سابك في السنوات

الأولى الغاز من أرامكو بسعر خاص (75 سنت للمليون وحدة حرارية) وهو ما يتماشي مع دعم الصناعات الوليدة في الدول النامية. وبوشر في تنفيذ مشاريع عملاقة للاستفادة من الغازات المصاحبة للبترول، والتي كانت في السابق تحرق هدرًا، لتضيق الأموال وتتلوث البيئة وتعرض الناس للمخاطر. وحيث ان النفط وغازاته تتكون أساسا من الكربون والهيدروجين، سميت مشتقاته "مواد هيدروكربونية" وإذا أضيفت لجزيئاتها عناصر أخرى مثل الكلور والأكسجين والنتروجين تسمى "بتروكيماويات" لها استخدامات عديدة في حياتنا. فهي تدخل في صناعة الأسمدة والأقمشة ومواد التعبئة والتغليف والأثاث والأدوية والمتفجرات، وتباع تلك الخامات بسعر جيد بدل حرقها، وتوفر فرص عمل ملائمة للمواطنين.

بوشر فوراً الاعداد لإنشاء مجمعات صناعية في الجبيل وينبع، والأجدى البدء بالأسهل مثل الأوليفينات، المشتقة من الغاز وتكون جزيئاته عادة على هيئة مستطيل، من ذرات الكربون أعلاه عدد مماثل من الهيدروجين وأسفله مثلها، ويقفل جانبيه الأيسر والأيمن بذرتين منه. وينتج منه مواد خام لكثير من الصناعات، ونتاجها غير معقد لكن سعرها ليس مجزي، لذا فالأمر يتطلب الدخول في منشآت لإنتاج مشتقات عالية القيمة، وبخاصة العطريات التي تتسم بشيء من التعقيد لكن أسعارها مجزية. ولتبسيط الأمر أبين للأحبة ان الأوليفينات الأولية بها عدد قليل من ذرات الكربون، فالميثان به واحدة والإيثان ذرتان أما جزيء البروبان فبه ثلاث ذرات كربون (ك 3) يحيط بها ثمان ذرات هيدروجين على هيئة مستطيل. أما الأروماتيكس فيها عدد أكبر من الكربون والهيدروجين، ويتماسك الجزيء على هيئة حلقة دائرية. ولا بد ان اكثركم قد شاهدتم الأبراج المعدنية في مصافي تكرير البترول، في الرياض وجدة ورأس تنورة حيث تكون حرارتها عالية (500 – 900 درجة) يدخل فيها الخام ثم يتبخر، كما ان بعضها هو مفاعلات يتم فيها ادخال بخار الماء، أو عناصر مساعدة للأكسدة والالتحام بين الجزيئات وذرات أخرى. وبعدها يجري فصل المكونات حيث الخفيفة (ك 6) في الأعلى والثقيلة (قطران) في الأسفل، ثم يتم الفصل والتبريد والتخزين. ويلاحظ ان المصافي الحديثة بها وحدات تكسير، حيث يمكن الحصول على ك 4 من ك 9 إذا لزم، وفي أعلى برج التقطير تؤخذ القطفة العطرية، ذات القيمة الجيدة ووفرة مشتقاتها. وأشير ان سعر طن النفط حالياً (مطلع 2020) يقل عن 500 دولار، بينما سعر المشتقات الأولية يقارب ألف دولار للطن، أما المشتقات الفرعية (داون ستريم) فيزيد سعر طن بعضها عن ألفي دولار. وبالمثال يتضح المقال فإن سعر الإيثيلين الخام ك 2 قليل ويصعب تصديره، أما اذا سحبنا من جزيئه ذرة هيدروجين فيصبح مادة الفينول، التي لو أضفنا لها ذرة كلور من ماء الخليج، لغدت "فينول كلورايد مونومر" أي انه جزيء أحادي، فاذا تم تصنيعه وجعله في سلسلة طويلة (بولي فينيل كلوريد) على هيئة حبيبات مثل الخردل أو الحمص يمكن صبغها، فسيكون سهل التصدير وذو قيمة طيبة، يستخدم في انتاج سلع كثيرة، منها أنابيب ماء متينة لا تصدأ فهي بلاستيكية. كما أنه

ان العطريات البترولية (مثل الزايلين والتولين) تستخدم لصنع مشتقات ثمينة، فإن البارازايلين تنتج منه (فيلامنتس) أي شعيرات رقيقة، تقوم مصانع الغزل الراقية في سويسرا واليابان بعمل خيوط الحرير الصناعي منه، ثم مصانع أخرى في كوريا تنسجها لتصبح أقمشة فاخرة، يتولى الخياطون صنع ثيابنا منها. ومن مشتقات البتروكيماويات الستايرين المنحدر من الفينيل، وجزئته 8 ذرات نصفها كربون والبقية هيدروجين، وينتج منه مواد عازلة ومنتجات هيدروكربونية أخرى. أما البنزول فهو من 12 ذرة ويشتق منه بنزوات الصوديوم لحفظ الأطعمة، ويدخل في وقود السيارات قديماً بإضافة الرصاص له، ثم جرى تحريم ذلك لخطورة الرصاص على أجنة البشر، واستبدل بمادة ميثيل ثلاثي بوتيل الإيثير، الذي تبين الآن تلويثه للتربة لوجود عناصر الميثان والبتان والكحول فيه. كما يستخدم البنزول مع الميثانول في تفاعل كيميائي ينتج التولين، الذي يدخل في صناعات كثيرة أهمها المتفجرات، حيث يُركب مع النيتروجين لصنع مادة "تراي نتر وتولين" المشهورة بمسمى تي إن تي. كما ان تفاعل البنزول مع الأسيتيك (الخل الصناعي) المستخرج من الميثان ينتج مستحضرات دوائية، مثل السالساليك (أسبرين) أو شبيهه السيتامول (بارا) وهو البنادول أو التايلينول كما يسمى في أمريكا. ويلزم الإشارة هنا إلى اختلاف المسميات على ضفتي المحيط الأطلسي، حيث البولي إيثيلين في أمريكا يسمى بولييثين في بريطانيا، أما الفرنسيون فيميلون للتسمية بعدد ذرات الكربون، فكافة مشتقات قطاع الإيثان يطلقون عليها ك 2. وأنه أن السطور أعلاه فيها تبسيط جانح لا يرضى عنه مهندسو الكيمياء العضوية، وهو لم يكتب لهم وإنما سرده استجابة لرغبة البعض من الأحبة والأقارب، ممن مازالوا في الصف الخامس ويتوقون لقراءة نبذة عن الهيدروكربونات والبتروكيماويات. والأول يشمل الثاني إضافة للسكر وزيت الطعام والنشا والخل، بل ويتسع ليحوي اللحم والدم والبيض وبعض الفواكه والخضار، فتبارك الله خالق كل شيء وهو أحسن الخالقين، مع العلم ان البعض يسمون تلك المنتجات الطبيعية كربوهيدرات، لتمييزها عن المواد المشتقة من النفط. ومثل على ذلك الخل الذي ينشأ من تخمير الفواكه مثل العنب والتفاح أو التمر، أو من الحبوب مثل الشعير أو الرز، كما يمكن الحصول عليه من الميثان الطبيعي أو البترولي، وكلاهما صالح للاستهلاك الأدمي، لكن الطبيعي يحوي الكربون والهيدروجين إضافة لعناصر من الفواكه أو الحبوب، أما الصناعي فلا يحوي تلك المكونات. وللأسف كانت المواصفة السعودية تجيز كتابة مسمى الخل على العبوات، بغض النظر عن عنصر انتاجه، وهو أمر سيء تم تفاديه لاحقاً بتعديل المواصفة لتشترط الإفصاح عن مصدر اشتقاقه، فأصبح من الواجب كتابة ما إذا كان من تخمير العنب أو من تفاعل كيميائي.

أشير لكم أيها الأحبة أنني لما حضرت من مصر للرياض أول مرة في الستينات، شاهدت زجاجات عطر رخيص مكتوب عليه {إحذر} ويحوي كحول الميثانول، الذي يسبب تليف الكبد وتلف العصب البصري، كما درسنا في الكيمياء العضوية، لكن بعض

المراهقين السفهاء كانوا يحتسونه، ثم بعد ذلك منع استخدامه في تلك القوارير. لقد سردت نبذة عن الصناعات الهيدروكربونية في الجبيل وينبع، لما أشار وكيل الخارجية ان غرض تركيا من إنشاء اللجنة أو المنظمة ليس جعلها مثل الانكتاد، بل شرح للمشاركين في لقائنا باسطنبول، انهم يطمحون لتعاون اقتصادي وتجاري، والشق الأول منه يعني إقامة مشاريع عملاقة للبتر وكيمياويات والمركبات والمعدات الإنشائية الثقيلة، يساهم في تمويلها البنك الإسلامي (جدة) والدول النفطية. أما الشق الثاني التجاري فيطمحون أن تفتح كافة الدول الإسلامية أسواقها لتلك المنتجات بلا قيود، ما دامت أوروبا وضعت عراقيل أمام السلع التركية لدخول أسواقها. كثر جدالنا حول ذلك وبينت للزملاء في الوفد السعودي، اعتراضنا الشديد على المساهمة في أي مشاريع للبتر وكيمياويات الأساسية، وما زحني أحدهم ان ذلك لأن الترك قاتلوا أبي وجدي وأسلافهم. لكنني أقسمت لهم بخلاف ذلك، فتركيا ليس لديها بترول ولا معرفة عميقة في الهيدروكربونات، ولا سيولة مالية للمشاريع التي يتكلف الواحد منها مليارات وليس ملايين. وهي مشاريع لا تحتاج عمالة رخيصة شبه ماهرة، وهي الميزة الوحيدة للترك (آنذاك) لذا فلا بأس من إقامة مشاريع للمشتقات الفرعية (الثانوية) شريطة توفر أسواق لتصرفها عن طريق تركيا. أما المشاريع المقترحة لإنتاج أو تجميع معدات هندسية، فلا مانع من الاطلاع على دراسات الجدوى الاقتصادية لها، وإذا ثبتت إمكانية نجاحها فيمكن المشاركة في تمويلها، عبر حصص في الملكية أو مساهمة عينية أو قروض متوسطة الأجل. وبينت للزملاء تخوفنا الشديد من الدخول كشركاء، في مشاريع عملاقة تقام على أساس الحماس والنوايا الطيبة، بدون توفر الرقابة الدقيقة لإنشائها وتشغيلها مما قد يؤدي لعقبات جمة في استمرارها بنجاح. وضربت مثال على ذلك مشروع "كنانة للسكر" في السودان، الذي كان يؤمل منه سد احتياجات العالم العربي من سلعة استراتيجية، تعني عن الاعتماد على الاستيراد من الدول الأجنبية. وتحمس له الملك فيصل والأمير صباح والرئيس نميري، لكنه لم يؤسس على خطط واقعية، كما تعرض لبعض الانتهاكات وسوء التقدير واضطراب الإدارة، مما تسبب في إشكالات جعلته عاجزاً عن سد احتياجات السودان وحدها. بخاصة ان تسعير المنتج غير واقعي، وعمالة زراعة القصب ونوعية التربة فيها إشكالات. ورغم محاولات الجهات السعودية والكويتية وشركة الاستثمار لتصحيح الحال، فلم يمكن إزالة كافة مشاكل المشروع، بل استطاع الاستمرار بشكل منقطع ولا يحقق عوائد مجزية. وقد كان جزء رئيس من المشكلة هو نظرة الإدارة في البلد المستضيف، حيث البعض يعتبر المشاريع المشتركة مع دول النفط مصدر منفعة شخصية! وأكدت على أهمية تلافي تكرار تلك الأخطاء.

رد علي وكيل الخارجية أن التعليمات العليا تنص على دعم التوجه الإسلامي لتركيا، فأكدت على اقتناعي بذلك مادام لا يؤثر على صناعتنا الأساسية، أو يهدر أموالنا في مشاريع غير مجدية، أو تتعرض للتعدي الإداري أو المالي. أنوه لكم أيها الأحبة ممن

رغبتم إلي ان اسرد نبذة عن بعض معاملاتي، اثناء الوظيفة الحكومية لمدة ثلاثين سنة، أو في القطاع الخاص لعشرين سنة، حيث كنت أواجه استشكال عند العمل في لجنة يشارك بها أحد من الجهات السيادية. وهو يطلق على تلك الكيانات التي ترى في نفسها العلو على غيرها حيث تتعامل مع المقام السامي مباشرة، ويتحدث مندوبيها أحياناً برأي حازم يوحي أنهم تلقوه من الأعلى، بينما الحقيقة أنها من بنات أفكارهم، ويريدون فرضها على بقية أعضاء اللجنة. تلك الجهات الخمس لدينا أربع منها يرأسها "رجل ملكي" ماعدا المالية، إلا أنها منذ حقبة السليمان تمارس سطوة المال على كافة الجهات الحكومية، أذكر لكم منها ما جرى في تلك الحقبة من ضغط النفقات بما فيها الدفاعية، حتى قال أحدهم "قضي حويك وابنيه" على سبيل المزاح، فتلقى في الديوان هزة عنيفة على كتفه؟ لقد كانت علاقتي مع الزملاء في الخارجية (السيادية الملكية) تقوم على الاحترام المتبادل رغم الاختلاف، وقد ظلت طيلة خدمتي الحكومية أعمل في الوزارات الثانوية، واكتسبت خبرة في التعامل معهم. لم أكد أفقد صبري إلا مرة واحدة فقد كنا نناقش في لجنة عليا اقتراح انشاء مصنع لسد مستلزمات جهات أمنية، ويترأس اللقاء لواء وقور وأعضائها من الحرس والدفاع والداخلية وغيرهم، وبعد انقضاء أكثر من نصف ساعة على البدء، حضر مندوب وزارة (سيادية غير ملكية تعج بالمحابة المناطقية البيغضة) ملبسه غير مرتبة، ولم يفسح له أحد فجلس على طرف طاولة الاجتماع يتطلع بعدم اكتراث، ثم أخرج من جيبه قرطاسة مطوية وانشغل يعبث بها. فجاءة قاطع الحديث بصوت جهوري وبلهجة قروية (فلاليج) قائلاً نحن نرى عدم الحاجة لذلك المشروع، وأمر بعدم البحث حوله وخرج مسرعاً، فحصل على ازدراء الجميع، واتذكر ذلك باستمرار كلما مررت قرب قاعدة الخرج. أما علاقة الاحترام مع الخارجية، فدفعنتي لمزيد من الحوار مع وكيلها، الذي اتسع صدره لوجهة نظري ونصح ان ابحت ذلك مع الوزير، الذي كان مشغولاً في مؤتمر صحفي مع بعض الإعلاميين الأتراك. وكنت قد استأذنته بالأمس لعدم حضور النسخة الثانية منه، فقد لاحظت ان الصحفيات يتجهن بأسئلتهن بعيداً عن المجال المحدد، فيتركون البحث في التعاون الاقتصادي بين المسلمين، ويشطحون نحو استفسارات عن دستور المملكة، أو منع النساء من قيادة السيارات. لكن الزامل كان ذو قدرة مميزة لتفادي الدخول في تلك الأمور، ويعيد توجيه الحديث لصلب المواضيع التي جننا من بعيد للتداول بشأنها. ولما تحدثت معه في المساء عن رغبة الأتراك الدخول في مشاريع صناعية عملاقة، وبخاصة انتاج المركبات والمعدات الثقيلة والبتروكيماويات. ورغبتهن مشاركة بلادنا معهم في تأسيسها وتسويق مخرجاتها، تساءل عن دراسات الجدوى لذلك، وبينت أننا لم نطلع بعد على شيء منها. ثم ذكرت ما قاله مندوب الخارجية عن رغبة القيادة في تشجيع التوجه الإسلامي لتركيا، وتوطيد ذلك بتعاون الدول الإسلامية في النواحي الصناعية والزراعية. لكنه كان حذراً من الخوض في تجارب تكرر أخطاء الماضي، بالدخول في تأسيس مشاريع على أسس عاطفية أكثر منها عملية، وحيث ان شركة سابك (التي يرأسها) هي صاحبة الامتياز في تصنيع مشتقات البترول، فهي التي تقرر

إمكانية الدخول في ذلك من عدمه، وعلى أساس المنفعة المالية لملاكها من المواطنين أو صندوق الاستثمارات السعودي. وقبل مغادرة اسطنبول مررنا على وسط أهم ميادينها (تقسيم) حيث الزحام والفوضى والقاذورات، واستهتار المشاة والسائقين والموظفين، ومستوى عالي من الأدخنة والتلوث، لكن ذلك تحسن كثيراً خلال ربع القرن التالي، وربما أنه تحسن الآن أكثر رغم أن تركيا ما زالت تدق أبواب الاتحاد الأوروبي، التي استمرت في رفض دخولهم للوحدة، كما رفضوا سابقاً وجودها في السوق المشتركة، نسأله تعالى الهداية والتوفيق لكافة شعوب المسلمين.

أكرر الاعتذار للأحبة عن هذا الانقطاع في التسلسل الزمني، الذي يهواه التاريخيون لكن أمثالي من غير عشاق التاريخ لا ينسجمون معه، بل ما أرتاح معه هو دراسة سيرة الناس ذوو الأثر في الحياة، واستخلاص العبر من تجاربهم. لذا فعلينا الآن ان نعود من تركيا في ثمانينات القرن العشرين، إلى نجد في اربعينات التاسع عشر. آنذاك كان آل خثلان في الحريق يقاسون الحيرة والاضطراب، فبعد أن قبض خورشيد على الإمام فيصل وأعادته للمنفى في مصر، أخذ الأمير خالد بن سعود (أو كما يلقبه البعض الأفندي وآخرون ولد أبوشوارب وغيرهم يصفه أنه الحبشي) يحاول فرض نفوذه كإمام لنجد، لكن خورشيد لا يترك له فرصة لذلك. ولما استدعى الكثير من أهل العارض، للجهاد معه حاولوا سبر فكره وغرضه من ذلك، وبخاصة أنه مأمور تحت توجيه عساكر مصر. لذا قرروا إرسال مجموعة من شباب الأسرة، حيث لم تفلح حيلة الخدم التي تحدثنا عنها في الفصل السابق، وكان من بين تلك الجماعة العم زيد. الذي حاول الاعتذار عن الذهاب بسبب مرض جده، وحاجة والده له ليتولى مراقبة عمالهم في التجارة والرعي والزراعة، لكن ألحوا عليه للذهاب والتعرف على قصد الأمير من طلب المجاهدين. لما وصلوا الوشم علموا أنه قد غادرها ليلتحق بخورشيد في القصيم، هناك التقى مع رجل من آل يحيى (سبعان عنيزة) الذي دعاه لوليمة مختصرة أقامها أحد جماعته للأمير خالد، وقد كان يعرفه أثناء مشاركته معهم في القتال قبل سنتين. لما رآه العم زيد عرف لماذا كان البعض يلقبونه الحبشي، فقد كانت بشرته شديدة السمرة لكنه ليس أسود، وأسر إليه أحدهم أنه مستولد من جارية كان يملكها الإمام سعود بن عبدالعزيز. بدا له ان الرجل دمث الأخلاق طيب المعشر متوقد الذهن، يتحدث بوقار ورزانة وله شخصية جذابة محببة، إلا ان شخص أخبره ان الأمير يعاب عليه تقلب الهوى، ففي ساعات يتزمت في بعض الأمور الشرعية، ويسب أو يضرب مرافقيه الذين يتأخرون عن تكبيرة الإحرام. وفي أوقات أخرى ينشغل عن الواجبات أثناء مجالسته لأهل التنباك، لكنه لم يره قط يستنشق دخان التبغ. في المساء صلوا المغرب وحضر الباشا ورآه من على مبعده كما في السابق، منشغل بطربوشه وثيابه وسرواله الفضاض، وسيفه الذهبي المتمنطق على خاصرته، لكن الرجل سارع بالانصراف لمكانه فور انتهاء الصلاة. في الليل تسامر بعض سبعان الحابر والفرع مع رفاق من عنيزة، حيث بينوا لهم ان الباشا بعد أن نفى الإمام فيصل لمصر، كان يطمح لتوسعة

ولايته شرقاً وشمالاً، واتجهت عساكره في العام السابق نحو الأحساء والبحرين (القطيف) ثم وردته أوامر للتحرك للعراق، فقد كان الباشا الكبير (محمد علي) يريد اشغال قادة البصرة وبغداد والموصل، كي لا يدعموا خطط سلطان إسطنبول لمحاربة إبراهيم في جنوب الأناضول. لكن بعد معركة نصيبين وقرار بريطانيا وروسيا وبروسيا كبح جماح مصر، وإقرار معاهدة لندن القاضية بانسحابها من الشام ونجد، تغيرت الحال واضطرت للرضوخ لها لعدم جدوى التحالف مع فرنسا. لذا فقد قررت قلعة القاهرة (أو قصر شبرا) سحب خورشيد من وسط جزيرة العرب، وترك حامية صغيرة مع الأمير خالد بن سعود، ليتولى حماية الطرق من اللصوص، ويورد لمصر إيرادات المنطقة. كان البعض مسرورين لانتهاج دور الغزاة الغرباء عن البلاد، لكن العم زيد وآخرون رأوا خلاف ذلك، حيث حكام القصيم وسدير والوشم والمحمل واليمامة، سيطمحوون للاستقلال عن سيطرة الرياض إذا استمر الأمير خالد في سياسته المضطربة. في اليوم التالي تبين للعم زيد زبدة الأمر الذي جاء ورفاقه من اجله، حيث ان دعوة الأمير خالد لحشد المقاتلين معه ليس بغرض الجهاد، بل القصد مقاتلة من تسول لهم أنفسهم الانفصال عنه بعد مغادرة الباشا وعساكره. جاءت دعوة للجميع للتوجه نحو الحناكية، لكن العم فهم الأمر فهي درب السفر إلى فرضة ينبع ثم مصر، لذا قرر ورفاقه العودة للفرع وإخبار جماعته عما آلت إليه الأمور. هناك تداول معهم "ما سمع وما رأى" في القصيم، وأجمع آل خثلان على ان لا ناقة لهم ولا جمل في التحول إلى حرس لإمارة ولد أبو الشوارب!

رغم توقعه إلا ان الجد علي رتب مع أبنائه السفر شرقاً للتجارة، وأنداك أفصح الحاج حسنين للعم زيد عما في خاطره منذ كانوا في الدلم، فأخبره ان عدد من عشيرته المصريين قد توسلوا للباشا ليأذن لهم بالعودة لمصر. وكما ذكرنا في الفصل السابق فإن بعض المقاتلين في جيشه، فروا من المنازلة واختاروا ان يبقوا مع العرب كماليك أو خدم، بدلا من المشاركة في سفك الدماء ويعتزلوا تلك الحرب الكريهة. ومن حسن طالع (مصادفة) حسنين المصري انه التحق بعمال والد العم زيد (عبدالله بن علي) يؤدي عمله بهمة وأمانة ويتقاضى مشاهرتة، وأخبره انه قد ادخر بعض المال ليفتدي به نفسه ويؤذن له للعودة لبلاده بعد تلك السنوات. حيث ان الباشا قد فوض أحد ضباطه ليمنحهم مكاتبه، بأنهم كانوا أسرى ولم يفروا من ميدان القتال ويعملوا مع العدو، لذا فهو يود العودة لأرضه وأهله. وبخه العم لذلك الكلام لأنه عامله في السنوات الماضية كأخ وليس خادم، ومتى رغب الذهاب لأهله ففي حفظ الله وليس عليه فداء، ثم أكد لزومه بالذهاب معه لمرافق البحر الشرقي (جهة الشاطئ العربي) وربما للضفة الأخرى تجاه ساحل بلاد الفرس، حيث سيتولى عمه سعد قيادة الركب من الفرع. في اليوم التالي جاءه حسنين ليشكره، وقد أوحى اليه البعض أن يفر من الحريق، لأن القوم قد يبيعونه في إحدى مدن الشرق حيث لا أحد يشفع له. لكن تبين أنه يفكر في شراء سلع الهند والصين، المطلوبة في مصر وسعرها جيد، كما ان خيول عُمان وحمير

الأحساء وإبل بيريون وضأن الهواجر والنعيمية مرغوبة هناك، واقترح أن يقوم العم زيد بالتمويل ثم يسافران سوياً إلى مصر. لم يستطع ذلك لكن نفسه تغيرت مادام أن الإمام فيصل وقرابته هناك، كما يقيم في مصر لفيف من سبعان نجد والقصيم، وكذلك عدد من ذرية الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ومما زاد في ميله للسفر ما بلغه عن وجود حكيم مصري في الفيوم، يمكنه مداواة بعض ما لديه. لذا فبمجرد عودتهم من القطيف والعيقر، باشرا في ترتيب الرحلة غرباً. اقترح حسنين أن يأخذوا معهم أنواع من تمور اليمامة الجيدة، ثم قررا التوسع في جلب مزيد من الحاجيات، التي تلقى الرواج هناك وبخاصة ان النجديين في مصر يتوقون لما يجلب لهم في بلاد الغربية، ولديهم دراهم لدفع كلفة نقلها الباهظة. لما بدأوا التفتيش عن قافلة للذهاب معها، تبين وجوب سلوك طريق البر، وذلك لوجود عدد كبير من المواشي معهم، كما ان العم لا يرتاح لركوب البحر ويصيبه دوار بعد ساعات قليلة، والسفر في القلزم (البحر الأحمر) يستغرق أيام طويلة، حتى لو كان لمرافئ الصعيد المصري وليس للأدبية. إلا ان المعضلة كانت في رفض والده أن يسافر أكبر أبنائه في تغريبة بعيدة، لقد كان السفر لمصر أمر غير معتاد لدى سكان وسط جزيرة العرب، الذين ارتحلوا دوماً للشرق وبلاد الفرس والهند، أو للشمال في الشام والعراق، أما التوجه غرباً لمصر والقيروان فكان قسرياً. لما اعترض والده عبدالله بن علي على التغريبة، لم يشاء مخالفته فقد كان عظيم البر به وصرف النظر، وكلف أحد بنو عمه ان يسافر لبيع المواشي والبضاعة في مصر مع حسنين وعمال آخرين. لكن هذا لم يرضه الحال، فلم يترك وسيلة أو شخص إلا وسطه ليقنع الأب بجدوى وسلامة السفر، بما في ذلك الجد المريض الذي أشار على ولده ليسمح لزيد بالسفر لمصر. بعد فطر رمضان توكلوا على الله، وشدوا الرحال نحو بلاد لم يعتد أهل الحريق السفر لها، إلا برفقة الأسرى والمساجين.

حملوا الدواب بكميات من علوفة البهائم فالأرض قاحلة، والسلع المطلوبة معهم وزاد الرحلة ثقيلة، وكان قائد الركب رجل معتوق ذو حزم وعزم وحسن تدبير، ويعرف الدروب جيداً لكنه لا يقدر على حث السير، حتى لا تتوَعك الدواب والمواشي. كان من الصحبة رجال أخيار صالحين، خائفون طيلة الطريق من اللصوص والقطاع، أما الحنشل فلا يسطون على التعرض لقافلة كبيرة مرتبة ومسلحة. كان العم زيد في قلق من حال البلاد بعد مغادرة الباشا، وتولي خالد زمام الأمور العويصة، ولم يكن معه سوى مائتين من المقاتلين، بعضهم من عسكر الباشا الكارهين بقائهم في تلك الصحاري، مع عدد آخر من نجد أكثرهم من مماليك والده، وهم وقرابته أوفياء للأمير كما كانوا مع معزبهم الأول. الأمير خالد شاب طيب المعشر دمث الخلق، لكنه منذ جاء من مصر مع البية ثم عمل مع الباشا، لم يتولى اتخاذ قرارات لتدبير شئون الحكم وسياسة المحكومين، بل كان مجرد واجهة لإضفاء شرعية مزورة للغرباء. مما جعله س"مرتبك التفكير والتقرير" ومما زاد الطين بلة اضطراب أقواله وأفعاله، فقد كان يحب المزاح ساعة ثم ينقلب للصرامة، ويجالس المنتسكين ساعات ثم بعدها يقعد مع

العامّة البسطاء والجهلة. لذا بلغ العم زيد ان أهل القصيم لم يرتاحوا له وكشروا عن أنيابهم، فأوصاه البعض أن يرحل للوشم، وهناك لم يحتفوا به لذا قرر الذهاب لعاصمة ملكه. لم تكن معه أموال وفيرة لسد نفقات العسكر والمجاهدين، فقد عم الجذب البلاد لقلة المطر، وقل الخراج وتذمر أعيان البلدات من كثرة طلبه للقروض وتوقفوا عن دعمه. فبدأ العسكر ينسلون من عنده، وعاد بعض منهم لمصر ولوبيا ومراكش، وهم الذين يحسنون الرماية وركوب الهجن، ولم يبق حوله إلا ثلة من أهل نجد وحشد من خدم والده الإمام سعود. وقد أشار عليه أحد أتباع الإمام من بقي على وفائه، حيث ولد وترعرع في قصور الطريف عند أبو شوارب، وما زال يتمنى عودة الأيام الخوالي. أشار عليه الرجل أن يرسل لطلب العفيسان من الشرق، حيث اختباء هناك هارباً من بطش خورشيد بعد هزيمة الدلم، وعلّموا في الحريق أنه وعد الأمير خالد بالقدوم عليه بألاف الرجال والعتاد والمال بعد رمضان، ولم يبلغهم ما إذا كان قد وفى بوعد أم لا.

ساروا شمالاً بميل نحو الغرب بعيداً عن ساحل البحر، وشعر العم بالقلق عند مرورهم في بلاد جهينة، حيث يبرز لهم بعض الأعراب بين أونة وأخرى، لكن قائدهم يدرك الترتيبات اللازمة للعبور الآمن. وكان الحال كذلك في ديار بلي والحويطات والشرارات، حيث أخفى الجميع سلعهم الثمينة في أسفل أحمال الركائب، ليظهر أنهم عابرون مع مواشيهم ودوابهم، وفي بعض الأحيان كان يدفع إتاة المرور والتعريف، مما يسهل تجاوزهم تلك الأماكن. ذات يوم قال لهم أحد الرفاق ان الجبل الضخم على مسيرتهم هو "عقبة ايلياء" وقد اقتربنا من مغادرة جزيرة العرب، لكن العم زيد قال إنها قد تكون "عقبة أيلة" حيث ربما كان حولها أصحاب السبت. الذين احتلوا على أمر الله فنصبوا شباكهم قبل مغرب الجمعة، لتقع فيها الحيتان ثم يمسكوها في اليوم التالي، يخادعون الله وهو خادعهم فسخط عليهم وجعل منهم القردة. بعد ذلك الجبل انحرفت المسيرة غرباً، وعلّموا انهم في سيناء متجهين نحو مصر، وتساءل البعض عما إذا كانوا سيمرون من حول طور سينين، أو سيعبرون الوادي المقدس طوى؟ لكن قائد القافلة ذكر لهم أنهم متجهون صوب المطلع ثم البحيرة المرة، وسيتركون تلك الأماكن جنوباً عنهم. بعد أيام من السير الوئيد ظهرت لهم بعض الأشجار، وقيل لهم أنهم سيصلون بلبيس في اليوم التالي، حيث على كل منهم أن يتدبر شؤونه فتلك هي محطتهم الأخيرة، وقد دخلوا في ولاية الباشا الكبير محمد علي الألباني. لما قام العم في الثلث الأخير من الليل للتهجد، شم رائحة الرطوبة والنباتات وروث البهائم، فعرف أنهم قرب منطقة زراعية كثيفة، وقبل الفجر زاد نباح الكلاب ثم أذنت الديوك وشم رائحة نار الحطب، مما يوحي بوجود بلدة قرب منزلهم وخيامهم. وعند الدلوك شاهد على البعد بلدة صغيرة تحف بها زراعات كثيرة، فظن ان نهر النيل يمر عندها لكن حسنين أفاده أنه بعيد، وعليهم ترك الصبح والإسراع مع عمالهم نحو المطرية، حيث لديه قرابة يمكن ترك مواشيهم عهدة في حظائرهم.

عند الضحى جاء مصري على فرس أصيلة ودعاهم لمضيفته، لكن حسنين رد عليه بخشونة أنهم متجهون لبيوتهم ولا داع للضيافة، وقبل ان يبتعدوا كثيراً شاهدوا على مبعده، أربعة فرسان مقبلين نحوهم ولما تبادلوا التحية، توجهوا بالحديث للعم بلهجة فلاليح القصيم، ودعوهم لزيارة مكانهم القريب وتناول القهوة المبهرة بالهيل، واستنشاق دخان العود الهندي. رد عليهم العم التحية بأحسن منها، لكن حسنين حدثهم بغلظة وبين ان العم قريبه وهو من يتولى شئونه، ثم أردف بالقول ان ليس لديهم ما يباع، وأن ما يرونه معهم أمانة يوصلونها إلى إمبابة. أشار له الجد ثم سألهم عما إذا يرغبون شراء بعض الخيل العمانية التي معهم، وهي من نصيبهم من أجرة احضارها لمصر، فأخذوا يتفرسون فيها ثم بدأوا يعذربون وينتقصون من صفاتها، وقالوا إنها غير أصيلة وأذائها وحوافرها مشوهة! فتمعض العم لكنه أحجم عن مجابتهم بالكلام، واكتفى بالقول إنه يعرف سلعته، فلما شعروا بذلك قالوا أنهم سيأخذون الستة بسعر يزيد عما هو في مصر، وكاد العم يوافق على ذلك فهو أكثر من ضعف ما اشتراها به، لكن حسنين انتحى به جانباً وسأله ألم تحسب جهدك ومخاطرتك ونفقتك؟ لكن العم كان بحاجة إلى بعض الدراهم وباعهم أسواء اثنان منها. بعد استئناف السير تساءل العم عن مصر التي يتحدثون عنها، فرد عليه حسنين (ابن البلد) انهم قد دخلوا الديار المصرية فعلا، لكن الناس هنا يسمون مصر البلدة التي تقع جوار قلعة القاهرة، وتمتد قديماً من جامع الأزهر حتى جامع السيدة زينب بنت الحسين، والبعض يحصر الاسم على منطقة فسطاط ابن العاص فقط. ثم سأله عن بلييس ومعنى اسمها، وتمنى ألا تكون "أبو ابليس" فبين له حسنين إنها بلدة قديمة، ويعتقد ان أميرة فرعونية اسمها {بيسه} كانت تستجم فيها، ثم شيّدوا لها قصر جميل {بيل} وبذلك اكتسبت الاسم. وذكر له ان أصح الروايات أنها البلدة التي خرج إليها يوسف، ليستقبل والده يعقوب ابن إبراهيم عليهم السلام، لما جاء لمصر من بلاد كنعان، ثم قال لأهله ادخلوا مصر ان شاء الله آمين، فتوجهوا نحو {منف} العاصمة القديمة.

كانت مسيرتهم باتجاه الغرب مع ميل نحو الجنوب، ثم لاحظ العم تناقص الغطاء النباتي، وبدت الأرض شبه قاحلة مع استمرار وجود مساكن متناثرة وحظائر، وبعيداً على يمينه لاحظ الجد بعض التلال الحجرية الصغيرة. ثم أشار حسنين نحو منازل متفرقة، وقال هذه هي المطرية ولا بد أنك ستسأل عن معنى اسمها، فرد العم ان ذلك واضح فلا بد ان أول من نزلها قوم من آل مطر، أو ان كونها في قاع مزروع تسقط عليها أمطار أغزر من الجوار، لكنه نفى ذلك وقال بل لأنها "من الماء طرية" فالمياه على عمق ثلاث قامات فقط، فتعجب من ذلك لكنه كان لا يبالي بكثير من علوم الحاج حسنين! طلب من الجد البقاء مع العمال والبهائم، ريثما يلتقي مع بعض قرابته ويدبر حظائر غير موبوءة، ففي مصر أمراض طفيفة لكن الحيوانات النجدية قد تتحسس منها. عاد إليهم بعد العصر ومعه اثنان فوجدوا الطعام قد أعد، ثم ساروا بالتوجه نحو القرية قبل شدة ظلام الغسق، وناموا براحة بعد ان أمضوا عشرات الليالي في العراء.

خلال أيام قليلة استردوا همتهم واستجموا، فعرض حسنين ان يتوجهوا لمنزله في بولاق غربا، تركوا اثنان من العمال مع الدواب في بيت من الشعر، ورفض صحب الرجل تقاضي أجره الغرف. بعد مسيرة غير يسيرة بدت لهم مآذن عالية، ثم ظهر سور طويل مرتفع، قبل ان يصلوه انحرفوا يسارا حيث قال ان ذاك الدرب سيأخذهم للفتوح، ثم شبرا وهم يريدون النصر ثم الحسين. كان على ميمنتهم تلال منخفضة فيها بنايات متناثرة، وعلى ميسرتهم قباب وأضرحة وغرف مبنية على ما يبدو أنها مقابر غير شرعية، وانحرفوا يمينا لما اقتربوا من دروازة ضخمة، قال انها بقايا بوابة النصر المملوكية. لما دخلوا منها تزايد الزحام عما كان في الخارج، وغدت الطرقات أزقة ضيقة يختلط فيها الباعة مع المشاة، والركائب لا تقدر على السير إلا بصعوبة وسط المعمة. شاهدوا ساحة متسعة على يسارهم بعيدا، وقال له الرجل ان ذاك هو المشهد الحسيني، واندش الجد حيث يعلم أن بدنه (رضي الله عنه) مدفون حيث قتله البغاة في كربلاء، ورأسه نقل لدمشق حيث استنكر ذلك يزيد وأمر بسرعة تكريمه بدفنه هناك، ولم يعلم سبب إقامة ذلك النصب الذي رأى حوله بدع بذينة. ثم أشار له حسنين نحو الجنوب حيث مسجد كبير آخر على مقربة، قال إنه الأزهر الشريف حيث حلقة تدريس لبعض من ذرية الشيخ محمد بن عبدالوهاب في رواق الحنابلة. من هناك استمرت مسيرتهم صوب الغرب بميل للجنوب، فتغيرت عليهم الطباع حيث اتسعت الطرق والمسالك والبنائيات، فقال له الرفيق انه كانت على ميمنتنا بوابة الشعاعية، وقد غادرنا أسوار القاهرة الفاطمية التي لم تعد موجودة، وصرنا في المناطق التي سكنها الناس خارج "البلدة القلعة" نظراً للزحام الشديد داخلها، ووجود مصالح عديدة للخلق حولها. مما أدى لزحف السكان من المناطق القديمة في الفسطاط والقطائع، وأخذوا يقطنون خارج سور القاهرة بخاصة جهة الغرب والجنوب. زكمت أنوفهم رائحة روث بهائم، ولاحظ العم وجود مرابط عديدة جنوب تلك الأرض الفضاء، وظن ان المكان الفسيح هو سوق لبيع الركائب، حيث توجد الكثير من الجياد والإبل والبغال والحمير، فبين له رفيق دربه ان ذلك المكان كان أحد أهم ميادين السباق في مصر. ثم لاحظ العم على الميسرة بستان (حديقة) ضخم، وغير بعيد عنه قصر منيف فخم، قال له حسنين انه "ذو العتبة الزرقاء" وقد شيده أحد كبار مماليك الأيوبيين، الذين أراحوا الفاطميين عن حكم مصر، ثم حكمها بعدهم المماليك لما تمكنوا من هزيمة المغول والنتار في الشام، وأسسوا دولة قوية وغنية متسعة الأرجاء. نقلوا لها الخلافة العباسية من بغداد، ومعها المقتنيات النبوية الشريفة التي ظلت عندهم ثلاثة قرون، حتى جاءت جيوش السلطان سليم من إسطنبول وانتزعت ذلك منهم.

قال الحاج حسنين انهما قد لقيا في مسيرتهم تلك نصبا، ومسكنه ما يزال بعيد لذا اقترح التوقف للراحة والطعام، فربطوا ركائبهم وولجوا في حانوت مزدحم، به روائح طيبخ ويعج بدخان التبغ وأنفاس الجالسين، يأكلون ألوان من الأطعمة غير المألوفة للعم قبل ذلك. وقد تأفف العم من ذلك وقال انه لا يأكل فيه إلا "غير العدول" الذين لا تقبل

شهادتهم، لكن ليس للمضطر إلا ركوبها فجلسوا مع الأكلين، وهو متضجر من القذارة والضوضاء والأدخنة. رغم ان العم قد شاهد كثير من الأماكن المشابهة، في أرض الحرمين والأحساء والبحرين والفجيرة، إلا انه لم يكن مجبر على الأكل فيها كما هذه المرة، أما حسنين والعمال فبدا أنهم قد استطابوا ذلك الطعام، المليء بمخلفات الذبائح وكثير من البصل والثوم والبهارات. لكي يسليه عن الغم بين له رفيقهم ان البستان الكبير الذي شاهده، كان في القديم بركة في أرض منخفضة تتجمع فيها مياه فيضان النيل، وتوجد حولها الأبقار ودواب أخرى، وتنمو جوارها حشائش وأشجار غير مرتبة. وفي زمن المماليك قام أحد قادة الجند من أوزبكستان ببناء بيت كبير له، وحوله منازل صغيرة لأتباعه، وقام بتنظيم المكان ونظف البركة الأسنة وأقام حديقة لطيفة، وسماها الأوزبكية التي اتسعت لتشمل بعض القصور بجوار الميدان والبستان. كما شيد جامع ضخم كان والده يعمل فيه، وبجواره مدرسة للعلوم الإسلامية، كان نابليون يحضرها سلما ادعى انه اعتنق الإسلام ليتودد للمصريين. ثم سكن فيها الباشا محمد علي لفترات أثناء تغير الهواء في أبراج قلعة جبل المقطم، لكنه لما نجى من الاغتيال عندها، تركها وبنى قصر كبير في شبرا شمال البلدة. أخذ العم يتطلع في المكان والناس، فلاحظ ان معظم الحضور يحفون شواربهم ويحلقون لحاهم، وإن كان البعض لهم شوارب طويلة عرف انهم من الصعيد. إلا ان ما أزعجه هو الضوضاء والمحادثات بينهم بأصوات مرتفعة، وتحركات بعيدة عن حُسن السمات والوقار، كما ان البعض يحتسون شراب، من قناني زجاجية أحيط وسطها بأعواد رقيقة من القش، ربما لمنع تكسرها أثناء نقلها على الدواب. وعلى حين غرة زاد الضجيج وبدا كما لو أن عراك سينشب، فاقترح المغادرة لكنهم اقترحوا عليه عدم الالتفات لهم، وأخذ أحد الحضور يرفع صوته على صاحب المكان الأكبر منه سناً، ثم أخذ يسبه ويتوعده بالويل والثبور وعظائم الأمور، فطمأنه حسنين ان هذه من عاداتهم السمجة، وبالفعل لاحظ عند المغادرة ان المتلاسنين يتبادلان لطيف الكلام، مما يشي بقلة المروءة لديهما. في الخارج أشار حسنين نحو الجنوب وقال ان هناك حي الحنفية، حيث سكن الإمام فيصل وعدد من أقاربه، لما جاءوا أسرى من الدرعية قبل عشرين سنة، والقوم هناك رأوا كرامات لديه، ويحضرون عنده للاستشفاء والتبرك، ولم يعلم أين يسكن الآن حيث جاء أسيراً وهم في الدلم. ساروا باتجاه الغرب عن ذلك الميدان، ثم قال مرشدهم ها نحن في جوار سيدنا أبو العلا! وقد دخلنا بولاق حيث المنزل والأهل. سأله العم عن معنى بولاق فقال إنه قشلاق تركي صغير، فلما وصلوا درب ضيق متعرج نزلوا وربطوا ركائبهم، وأشار لهم أن يجلسوا على دكة حجرية ريثما يعود إليهم. طال انتظارهم والمارة يحملون فيهم مستنكرين لباسهم وسلاحهم، ولما نودي لصلاة المغرب توجه أحد العمال لمسجد قريب، وعاد بخير وجود مكان للوضوء، فذهب معه العم وبقي عامل ينتظر عودة رفيقهم. وقد تدمر الجميع لتأخر عودة الرجل، وقلق الجد أنهم في غربة وقد لا يمكنهم معرفة طريق العودة لمكانهم في المطرية، لكن أحد العمال طمأنهم أنه قادر على اعادتهم، وقال آخر ان الرجل في غربة عن أهله منذ سنوات، ولا بد أنه مشتاق

لهم ولم يظن لمضي الوقت. قرب أذان العشاء جاء حسنين بصحبته رجلين عليهما أسمال بالية، وتعذر عن تأخره وأمر صحبه ان يحملوا الحاجيات، وساقوا الركائب إلى فناء قريب وأودعوها عند ناظره. اتجهوا نحو المنزل عبر أزقة ضيقة ملتوية، ولما وصلوا درب مسدود أدخلهم في بيت طيني متواضع، فصعد معه العم للطابق العلوي حيث سطح متسع، وعدة غرف تحيط به أمام كل واحدة زير فخاري وأواني للشرب والغسل، فدخلا في احداها حيث وجد بساط وامتكا، وفي الزاوية فراش للنوم. ثم نادى على العمال متسائلا عن إتمام تخزين حاجياتهم الزائدة، ووجههم لغرفة مجاورة ليضعوا أغراضهم ويبيتوا فيها. بعد برهة جاءتهم أم حسنين وزوجته بالطعام، ومدوا سماط وضعوا عليه مرق وثرديد وأرز، وتبين على ضوء السراج أنهم قد ذبحوا أرنب ودجاجة، وقال مضيفهم ان النسوة اجتهدن لطبخ ما قد يشبه طعام أهل الحريق، وتمنى ان يروق لهم رغم عدم تمكنهم من الاتقان. ثم أضاف القول بأن نسوة مصر يشاركن في الترحيب بالضيوف، على خلاف ما يراه الجماعة عندكم، فنحن لا نخالف الشرع فأبو الأنبياء عندما جاءه ضيوف منكرون، حضرت قرينته للمشاركة في تقديم الطعام وتحدثت مع الحضور، ولما جاء ذكر أهل الفاحشة العظمى ضحكت، ولما جاءت البشارة بالحمل والولادة صكت وجهها، فرد عليه العم معترضاً على تأويله.

تيقظ العم قبيل منتصف الليل على جلبة وصخب، وسمع عند الجيران شجار بين النسوة، وتقول بألفاظ بذئية وكلمات نابية على بعضهم البعض، ثم تزايدت الأصوات وسمع تراشق بقطع خشبية وزجاج، ولم يشاء الخروج لاستطلاع الأمر فالسلامة غنيمة. بعد قليل هدأت الحال وعم السكون، لكنه لم يستطع معاودة النوم حيث تزايدت عليه قرصات بعض الهوام والحشرات في المكان، ثم زاد ضيقه لما تعالت أصوات المعازف، بينما رفع بعض الرجال عقيرته بالغناء. في الهزيع الأخير من الليل تنامت الى مسامعه أصوات خفيفة رقيقة، لم يتبين كنهها حتى ارتفع آخر من مقربة، فعلم أنه شخص من على مئذنة مسجد، كان يصيح بتسابيح وتهليل وذكر لله، صوته متناغم بترنيل مقاطع من كتاب الله، وتمجيده سبحانه والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه. كان ذلك ايدان بقرب طلوع الفجر يشبه الأذان الأول قبل الفجر الصادق، ثم ارتفع صياح الديكة وأصوات الحيوانات في الغرف الأرضية، لما توضع العم حدثته نفسه للمشي للمسجد، لكنه توجس خيفة من ظلمة الطريق، وعدم معرفته للمكان وطباع أهله لذا صلى في مكانه. بعد فراغه خرج ليشرى فرأى خيوط الضوء، وسمع المارة يذكرون الله فأبت نفسه إلا ان يشاركهم، في الأسفل تبين له ان البناية تشبه منازل الريف، حيث الحيوانات في الجزء الأرضي والسكن في الأعلى. وليست مثل بيوت الحريق حيث البهائم والدواجن في الخارج، والمنزل طابق أرضي فيه المجالس وأماكن المعيشة والنوم، وبعض القصور (منازل أكبر قليلا) فيها طابق علوي أما أنه للحريم أو للضيوف. لم يعرف اتجاه المسجد في الساحة لكنه تتبع المارة، وجد المكان ضيق سيء التهوية لكنه نظيف، وفرشته حصير على التراب الناعم. اعتبر ما صلاه نافلة

الفجر ودخل معهم لأداء الفريضة، ولم يطل الإمام القراءة لأنه يسعل بشدة، ثم انتحى جانباً ليذكر ربه حتى طلوع الشمس. جاءه رجل طويل القامة حليق الشارب ذو لحية لا تتجاوز القبضة، وبعد التحية قال انه المؤذن وسأله ان كان من عرب الحجاز، فرد عليه بالإيجاب ظناً انها للسلامة من تطفله، لكنه قال إنه أيضاً من بني فزارة في الحجاز، وسرد له كيف ان جده الأكبر جاء بالبحر إلى القصير ثم قنا وسكنوا أسيوط، ومنها جاء جده مع والده لمصر (القاهرة) قبل غزوة نابليون بعشرين سنة. وثرثرة جزيلة أدخلت السأم على العم، فتظاهر بالقيام للمغادرة فرافقه الرجل وعند الباب سأله عن مسكنه، فأجاب أنه عند صديق وما زال يبحث عن مسكن، على ان يكون قريب من مقر صحبه الذين جاءوا رفقة آل سعود، فسارع بالقول انه يعرف رجل يعمل مع بعض أبناء السعودي. وبينما هم في الطريق لمح زول الحاج حسنين، الذي هرول نحوهم وقبل ان يصلهم بدا انه قد تعرف على مرافقه، الذي سارع بسؤاله { هوه انت رجعت يا شرقاوي؟ } فرد عليه { أيوه يا مسكين } قال حسنين للعم انهم افتقدوه وخرج يبحث عنه، ويتمنى ان لم يحدث له مكروه، ثم أخذ بيده بعيداً حيث بدا ان الرجلين ليسا على وفاق.

في البيت قال انهم قد أعدوا لهم الفطور، ثم يذهبوا للنزهة في البحر (النهر) لكي يرى النيل ويستمتع بالفسحة فيه، ثم يقابلوا تجار البهائم عليهم يتمكنوا من بيع شيء منها، قبل ان تتعرض للمرض أو السرقة. حاول العم التملص من تلك الترتيبات، وأخذ استراحة في ذلك اليوم بعد مشقة السفر، لكن الرجل بدا مصراً لإنفاذ ما أعده. وقال له بعدم الحاجة للركائب حيث البحر قريب، لكنهم مشوا ما يزيد عن نصف ساعة، سمع أثناءها هدير آلات داخل مباني ذات أشكال غريبة، وفي كل منها برج مرتفع تتصاعد منها أدخنة ورماد. عرف أنها مصانع لمواد البناء والقماش والمعادن، كما أن هناك دار بها مصاهر لسك العملة النقدية المتداولة في مصر، وهي ليست من الفضة أو الذهب بل من خليط من النحاس والحديد والكروم، ولا قيمة لها خارج مصر بل تستخدم في تلك الجهات فقط. فهي نقود جهوية وليست مثل ريبالات الفضة الخالصة، التي تسمى في نجد الفرانسة وفي مصر النمساوية أو تريزا، وتحظى بالقبول في كافة البلاد لنقاوتها العالية، ودقة وزنها وأوقية كاملة. ولما تولى عبدالمجيد السلطنة في إسطنبول بعد محمود، سارع لإصدار ريال عثماني أسموه المجيدي، وبعد ذلك أدخلوا ليرة عثمانلية من الذهب زنة ثمانية جرام لتنافس الجنيه الإنجليزي. عرف العم عن وجود مطبعة كبيرة في بولاق، قامت على بقايا مطبعة نابوليون التي أحضر حروفها العربية من مالطة، وكان يصدر فيها "نشرة الوقائع" التي كان عساكره يلصقونها على حوائط المساجد والمدارس، وتحوي توجيهات الحاكم للشعب وأخبار ما يجري في البلدة، لكنها فشلت في محاولتها لطباعة المصحف الشريف، على مستوى مقبول كما في مطبعة إسطنبول. كما توجد هناك مدرسة للصنائع يتعلم فيها الفتيان أصول تشغيل معدات الإنتاج، وإصلاح ما قد يعترضها من تلف، وصنع قطع لتغيير الخرب منها بدلا من جلبه من فرنسا وانجلترا. ولما وصلوا الساحل هاله منظر نهر النيل المتسع، فهو حقيقة

يشبه البحر وليس مثل بردى دمشق أو دجلة بغداد، وعرف لماذا سماه الله "اليم" لما أمر أم موسى ان تلقيه فيه ليلتقطه آل فرعون. توجه بهم حسنين إلى فرضة بها زحام من قوارب وسفن في شغل دائم، بعضها ينزل بضاعة من الصعيد أو من اليونان عن طريق رأس البر، وأخرى تشحن بضاعة من القاهرة إلى مناطق مصر الأخرى. تنزهوا في زاروق صغير سار بهم شمالا في النيل، واستمتعوا بمناظر خلابة للمزارع الخضراء المنتشرة على ضفتي النهر، وتناولوا طعام الغداة في الزورق ثم نزلوا للوضوء وصلاة الظهر. وتعرف العم على المزيد مما حبا الله به مصر، فإن مياه النيل تسير متجهة دوما نحو الشمال، وأما الرياح فتهب عادة نحو الجنوب، مما يسهل حركة السفن، فإذا أرادوا الصعود أعلى النهر نشروا الأشرعة، فتدفعهم الرياح عكس التيار، ويطوون الأشرعة إذا يريدون التوجه شمالا. أثناء توقفهم للراحة وقضاء احتياجاتهم، جاءهم غلام ودعاهم لزيارة مكانه واستضافتهم، وحثهم حسنين لتلبية الدعوة حيث قدم لهم الشاهي، ثم ألح عليهم شراء عسل من عنده بسعر زهيد، لكن أحد العمال أخبرهم أنه شاهد في الخلف خلايا نحل يتغذى على السكر، ولا يرعى في زهور النباتات البعيدة مما يجعله من نوعية رديئة، ولما ألح عليهم للشراء منه تعذر العم بأنهم على سفر ولا يستطيعون حمله. عند ذلك بداء العم يلاحظ القبح لدى حسنين، فنهره بسؤاله عما إذا كان قد نسي جبال المفيجر ونعام، التي تمتلئ بخلايا عسل السدر الجيد، وأن لا حاجة لهم في مثل هذا الصنف. قبل العصر أخذهم الزورق إلى الضفة الغربية للنهر، وبعد مسيرة قليلة وصلوا سوق مكتظ بالدواب، عرف أنه امبابة حيث وجد المكان يزدحم بحظائر وأوادم، منهم من يشتري وآخر يبيع وغيرهم يحمل العلف أو يحرس. ثم لاحظ ان بعض تلك البهائم عليلة، وبخاصة القادمة من بلاد السودان، أما الأسعار فهي متدنية حيث يخشى بعض الجلابة نفوق دوابهم. أخذهم حسنين إلى عشة سققها من جريد النخل والخوص، وأرضيتها مفروشة ببساط نظيف وفيها أرائك، يجلس فيها رجال يبدو أنهم من وسط جزيرة العرب، رحبوا بهم وتحدثوا عن مواشي العم زيد في المطرية، وجرى الاتفاق ان يذهب أحدهم مع عامل لمشاهدتها، وشرائها في مكانها إذا اتفقوا على السعر.

أدرك العم العشاء في المسجد ثم جاءه المؤذن، وسأله عن غيابه عن فريضة العصر، حيث حضر الرجل الذي يعمل مع السعودي، فتعذر منه العم لوجوده بعيداً عن بولاق، فطمأنه ان الرجل سيحضر عصر غد لشغل له مع أهل زوجته في الجوار. تبين ان الرجل اسمه مسكين وليست صفته، أما خصلته الأساسية فهي الثثرة المزعجة. عند الضحى حضر رجل من امبابة، وذهب مع حسنين وأحد العمال للمطرية لفحص المواشي وتسعيورها. صلى العم العصر "مع المسكين الثرثار" ووجد معه مصري عليه سمت ووقار، بعد الترحيب سأله عن يريد من السعوديين، فقال انه يريد الإمام فيصل فأنكر معرفته بمقره، لكنه عادة يصلي الجمعة في الأزهر، وإنه يعمل مع رجال من أعوان آل سعود الآخرين. طلب منه ان يوصله لأحد من كبارهم فسأله عن قبيلته وبلدته، وتبين ان الرجل قد عاش بعض الوقت في نجد ويعرفها، ذكر له اسم شخص

سديري من سبيع الذين في تمير، فلم يعرفه العم حيث لا يوجد فيها سبعان، أما بعض بلدات سدير ففيها سبعان أكثرهم من البادية. على كل حال قرر العم التوجه معه لمنزل السبيعي السديري، فساروا نحو ساعة باتجاه جنوب شرق الأوزبكية، واقترح العم ان يبقى مع العامل في المسجد المجاور، وذهب المصري لمنزل الرجل ومعه رسالة بأن زيد بن خثلان السبيعي وخادمه يودون السلام عليه. قبل الأذان بقليل عاد المصري ومعه السبيعي الذي رحب بالعم، وبعد الصلاة توجهوا سوياً لمنزله الصغير والمرتب، ولما تحدثوا علم العم ان الرجل من عريينات رماح، ويرعى أنعامه وحلاله غرب العرمة، في الشوكي والخشم وأم الشقوق حيث أشجار الطلح والسدر والأرطأ، كما تزدهر الروضات والمطامن (منخفضات) بعد المطر، ثم شيد منزل في تمير وتزوج أخرى وبقي يتجول بين البلديتين. تحدثوا عن آل سعود ومساكنهم في مصر، فقال له ان من المعلوم انقسام أمراء الدرعية إلى ثلاثة فروع، الأول والثاني هم ذرية محمد بن سعود المؤسس، الذي كان له عدد كبير من الأولاد، لكنهم انقرضوا ما عدا ذرية اثنان عبد العزيز وعبدالله، وأما البقية فقد استشهد بعضهم في المعارك، وآخرون ماتوا صغاراً والبقية انقطعت ذريتهم. وذرية عبد العزيز هم الأكثر عدداً ويرون أنفسهم الأحق بالولاية، فأبوهم هو الأكبر واغتيل أثناء حكمه، وولده سعود وإخوته وسعوا حدود إمارة الدرعية، ووطدوا نفوذها وهيمنوا على معظم أرجاء جزيرة العرب، ولا يحق لكائن من كان ان ينازعهم الحكم، رغم ما يعرفه الجميع عن الضغائن الفاسدة بينهم. حيث قتل الإمام سعود بعض أبنائه وسجن ونكل ببعض إخوته، وبعد وفاته تشاجر أبنائه بينهم، بخاصة الإمام عبدالله وأخوه فيصل ووفاته غامضة! أما ذرية عبد الله الذي لم يتولى الحكم قط، فيرون أنهم أحق بذلك من ذرية عمهم، الذين لم يحسنوا سياسة الأمور وآذوا الناس. مما جلب العساكر الأجانب للبلاد، وسبب لها الدمار والويلات التي انتهت بأخذ كبيرهم لمشنقة الترك، إضافة لما بينهم من التحاسد والتنازع مما أدى لبغض القوم لهم. ورغم ان جددهم لم يتولى الحكم إلا أنه كان عضيد أبيه ثم أخيه، وعرف عنه الناس الحكمة والرصانة وحسن التدبير والسياسة، كما ان أبنائه تركي وإبراهيم وسعود ومحمد وزيد، شهد لهم الجميع بطيب المناقب، وقد أبلوا أحسن بلاء في الدفاع عن الدرعية أثناء غزوة إبراهيم. أما الفرع الثالث فهم ليسوا من ذرية محمد بن سعود بن محمد بن مقرن مؤسس إمارة الدرعية، لذا يسميهم البعض هنا آل مقرن، ويتكونون من نسل إخوة الإمام (ثنيان ومشاري وفرحان) الذين دعموا أخاهم لتوطيد سيطرته على البلدات المجاورة، كما يوجد أناس من أبناء عم الإمام (آل عياف) ساهموا معه أيضاً. أما من هم ذرية مرخان ووطبان (المريديية) فقد عادوا بعد نكبة الدرعية، لكن لم يكثر لهم أحد، ويوجد عدد منهم في العراق والشام وقلّة في مصر. ثم أشار على العم بوجوب الحذر من الحساسية بين الفروع الثلاثة، ومن يتعامل مع فرع منهم يتخوف منه أفراد الفرع الآخر، حيث كل فرع يطمح ان يعود لحكم نجد لأنهم الأكفاء. ويحاول بعضهم التقرب للباشا الكبير، لكنه يعرض عنهم ويحيل المتميزين منهم لأبنائه وحفدته، والبقية يحيلهم لمرافقيه أو للداياتية. ثم أفصح للعم ان

سبب ضيقه مؤخراً، هو ان القوم اعتبروه موالى للفرع الأول (آل عبدالعزيز) وهو قد جاء لمصر مع مرافقي الإمام عبدالله قبل عشرين سنة، لكنه لم يذهب مع المقربين لإسطنبول حيث المشنقة، إلا انه بقي يرضى شئون أبناء وإخوة الإمام، حيث رتب لهم الباشا سكن ومعيشة متوسطة. وبعد عشر سنوات لما تمكن الإمام تركي من بسط نفوذه على نجد، جرت مقولات مع الباشا ان لا يتعرض له لقاء ثلاثة شروط، أولها ان يرسل لمصر خمسي (2÷5) الخراج وان يؤمن الطرق ولا يمد سلطته خارجها. وعندما أرسل الإمام يطلب السماح بعودة ولده فيصل، وابن أخته مشاري والشيخ عبدالرحمن (حفيد الوهابي) وافق على الإثنين وأمر ببقاء فيصل عنده تحت الملاحظة. لكنه بعد سنتين أجاز لفيصل ان يعود عند والده، ولما ذهبت نحوه أطلب مرافقه للعودة لأهلي بمعينته، رفض وأوصاني بالبقاء مع بني عمه في مصر، حسب وصية الإمام عبدالله لي. وقد علمت من أحد مرافقيه، انهم لا يثقون في أعون ذرية الإمام عبدالعزيز، لذا فقد أوصاه بوجوب تجنب التعامل مع الفروع الأخرى اذا كان يزعم التواصل مع الإمام فيصل. لكن الجد أفاده انه لم يأتي لمصر إلا لغرض التجارة وأمور شخصية، ولا يود الدخول في نزاعات البعض، إلا انه يرى ان الإمام فيصل ما يزال هو ولي الأمر، وإذا سنحت الفرصة يود السلام عليه وتجديد العهد به.

بعد الصلاة رفض السبيعي ترك العم وعامله يغادرون، إلا بالموافقة على تناول الطعام عنده بعد عصر الغد، حيث سيدعو بعض النجديين للتعارف، والتداول حول فرص التجارة في مصر التي قد تفيده، فرفض العم ذلك إلا بشرط قبول هديته، وهي كبش من الضأن النجدية التي جلبها معه. ثم هرولا للعودة لبولاق في الظلام، لكن الطرقات عامرة بالمشاة من رجال بمختلف السحنات والثياب، ونساء بعضهن متكشفات وسافرات لا يتورعن عن التطلع في المارة، أما في النهار فقد كانت أكثر النساء مستترات، يلبسن عباءة سوداء (لغافة) تغطي من أعلى الرأس حتى أخمص القدم، وعل وجوههن برقع أبيض ينحدر من أسفل العينين حتى الصدر. والبعض يكتفين بما يقال لها الملائة الملونة، مع برقع من الجبهة حتى النحر به فتحة مستطيلة على العينين. ونسوة أخريات يتغطين بدراعة شاملة كل البدن، وبه مثل ثقوب الشباك أمام الوجه يسمح للمرأة بالنظر ولا يسع الرجال معرفة ملامحها، ولما سأل عنهن قالوا هؤلاء جميلات الشركس، يحافظن على التستر ولباس السنة. لما وصلوا منزل بولاق لاحظ العم الحمير الحساوية الثلاثة التي طلبها، وسأل عن الخروفين فقالوا انهما في الداخل، ثم التقى حسنين ورفيقه الإمبابي، الذي بشره بالمكسب حيث سيشتري الرجل نصف المواشي، بسعر طيب والدفع مقدم. حينذاك بدا للعم مرة أخرى الجانب القبيح لحسنين، فانتحى به جانبا وقال له ما أطيبك في الغربية وما أسوأك في أرضك، ألم تعترض على المشتري في بلبيس، الذي أراد أن يأخذها جميعاً بأكثر من ضعف هذا؟ والآن تريد ان ينتقي الرجل النصف الطيب، ويترك لنا "العوراء والقرناء والعرجاء" وبقيمة بخسة. فرد عليه ولكن هذا يزيد عن ثمن شرائها، فوبخه لعدم حسابه نفقات

سفرهم والعلف والناقق، وما دفعوه من مكوس وأجور في رحلتهم الطويلة، وأمره بحدّة ان يطلب منه أخذها كلها بما عُرض عليهم في بلبس، مع نفقة الحظائر أو يصرفه. بعد الفجر جاءه الثرثار مسكين يسأل عما جرى له البارحة، شكره لأن الرجل أوصله لأحد القرابة، ومنحه ريال فرانسة كامل ففرح به حيث إنه ثمين لديهم. بعدها قال له أنه يود نصحه للحذر من حسنين، الذي لا يعرف الشيمة والمروءة وقد يغدر به في لحظة، ثم شرح له ان الشرقاوية كان يعملون مع الانجليز، على الخط البري الواصل بين بحري القلزم والروم (قبل شق القناة) وكانت شركة الهند تسيطر على بلاد واسعة بها خيرات كثيرة. والبعض لا يتحملون السفر حول رأس الرجاء الصالح، لذا فقد قام أحد موظفيها بالعمل في استقبال الركاب القادمين من الهند، وينقلهم من الأدبية (السويس) إلى القاهرة حيث رتب لهم مضيعة يقيمون فيها لأيام، ثم يغادرون للإسكندرية (مرحلتين) وينزلون ليلة في مستراح، ومن هناك يرحلون بالسفن إلى ليفربول، موفرين على أنفسهم عناء رحلة بحرية قد تبلغ الشهر. فرد عليه العم ان ذلك العمل من حسن التدبير، وليس عليه منقود ما داموا يحققون دخل من عملهم، لكن الرجل بين له ان الأمر فيه مخالفة، حيث اكتسب بعضهم طباع النصارى من كثرة مخالطتهم، وفقدوا شيمتهم وغيرتهم على المحارم، فبعضهم (قلة) يسمحون لنسائهم بخدمة الانجليز، بل وآخرون يرضون لهن بالمبيت عندهم، مما جعل نسل بعض الشرقاوية والإسكندرية ذوو ملامح مختلفة. غضب العم من ذلك الحديث وأمره بوقفه لأنه بذلك يروج للفاحشة، بدون أي دليل سوى الشبهة ولا أحد ينزّه نفسه، لكن الرجل استمر في غيه وقال انه من فزارة، وأسرته تسمى الشيمي وأكبر بناته شيم، وهم على مذهب الشافعي القرشي وليسوا على مذهب أبوحنيفة (العجمي) الذي فرضته إسطنبول على المسلمين، وهو يجيز ان تزوج المرأة نفسها كالعاهر، بلا ولي ولا قاضي وبشهادة الجدار، عندها شعر العم بالغضب وقرر المغادرة، قائلاً له سأرسل لك قطعة لحم حيث سننشغل بالذبح. بدأت الشمس تشرق فأمر عاملين بالركوب وأخذ الكبش الأكبر للسيبي، وطلب من حسنين ان يدبر قصاب ليذبح الآخر، فتطوع بذلك مدعياً خبرته في الأمر. لكنه لم يحسن العمل حيث باشر في نفخ الذبيحة من رجلها وأخذ يضربها بعصا غليظة، وبعد النفخ بداء السلخ بطريقة رديئة جعلت اللحم يختلط بالصوف، ولما جاء التقطيع كان عمله أسوأ متذرعاً برداءة الساطور والسكاكين. أخذ العمال يطبخون "قدير معجل" ثم يشوون الكبد والكلى والقلب، ثم أمر حسنين ان يوزع اللحم على أهله وجيرانه، وأرسل قطعة من الزند لمسكين الثرثار.

ارتدى العم ثوب وعباءة طيبة وصلوا العصر في الطريق، ووجدوا عند العريني ستة رجال من نجد، فتعارفوا وتحادثوا وكان بعضهم سبعان، وأحدهم مطيري وسيبي من عنزة ربيعة، وليس من بني صعصعة المضرية، وعشيرته تقطن بين حفر العتش (شمال رماح) والأرطاوية. كلهم ذوو صلة بأبناء وأحفاد الباشا الألباني الكبير، وهم على علاقة بأمرأء من البيت السعودي، وذلك حسب ترتيب منظم أعده الباشا. كان درة

المجلس رجل من بني ثور (عنيزة) ضحل المعلومات، لكن لديه أحاديث وقصص ظريفة. أما شيخ المكان فرجل عليه ملامح الثراء يقال له أبو سعد البرازي، وهو من السهول (بنو عم سبيع) يسكن في سدير (جلاجل) والمحمل القريبة منها (ثادق ورغبة) ويوحى كلامه انه مقرب عند الإمام فيصل. لما دخلوا على الطعام شاهد العم صحون كبيرة، عليها ما يشبه حبوب الحنطة الداكنة، وفوق كل منها أرنب أو طائر ضخم أو حوت، فصاح رجل يا يماميون أنتم مولعون بدهون الضأن، أما أنا فقد أمرني المداوي ان احتمي منها، فخلوا لي المكان لأضرب الخمس في الطير الذي اشتبهه، وصيد البحر ذو الملمس الطري. قال مضيفهم هذا خروف نجدي مجلوب مع ابن ختلان، وأضفنا معه لحوم أخرى لمن يرغبها، وللعمال والجيران فحياكم الله جميعاً وسامحونا للتقصير. بعد الانتهاء باشر الجميع كل منهم يدعو العم زيد لكرامته، فتعذر منهم لأنه انما جاء لغرضين، أولها بيع ما لديه من دواب موجودة في المطرية، والتوجه للفيوم لغرض شخصي. وما أبقاه إلا رغبته في السلام على إمام المسلمين، وأداء واجب تجديد العهد به، حيث لم أره منذ تركنا الدلم قبل سنتين. بعد ان غادر الجميع انتحى العريني بالعم وبالسهلي في الخارج، وقال انه يريد معاونته في أموره الثلاثة، فقال لهما الرجل أما الفيوم فأعرف أمرها، وسأل إذا كان متزوج فرد "نعم مرتين" فسأل عن البندق وقوتها فأجابه بفضل الله نشيطة، لكن الفشك يبدو ضعيفاً! تمعض من الرد وقال ان حكيم الفيوم يعالج البندق، بمنقوع أعشاب وغيرها ويفلح مرتين أو ثلاث من كل عشر، ولا بد من الحذر فالبعض لديه سفوف وشراب قد يؤذي، لذا وصف له معالج آخر في واحة غرب الفيوم، لكن يلزم السفر مع صحبة قوية، حيث ينتشر في المنطقة بدو اللوبيا الأشرار، كما نصحه ان يزور طبيب من الحوامد مكانه في الجيزة القريبة. وبالنسبة للمطرية ودوابها فسأخبر عنها رجل من بلبس، قد يشتريها منك بسعر مجزي، وإذا راقت لك الحال في مصر وتود التردد عليها، اما للتجارة او لشئون خاصة فأنصحك بشراء مكان في المطرية أو الريدانية، حيث إنها مقبلة على ازدهار. فقد اقطع والي مصر أبنائه وحفدته وبطانته أراضي هناك، وسيشيّدون فيها مباني للسكن والنتزه، كما طلب من بعض المهندسين الفرنسيين الذين يثق فيه كثيراً، فهم وحدهم من أيده في حربه ضد إسطنبول، ان يضعوا خطط لإقامة مدارس ومعامل في تلك الناحية، لذا فهي مقبلة على ازدهار ونهضة وقد ترتفع أسعار أراضيها.

أما الإمام فإن حاله مضطرب منذ نهاية العام الماضي (56هـ) فقد كتب اليه السديري ان أحوال الأمير خالد بن سعود ليست جيدة، فبمجرد مغادرة خورشيد للقصيم، لم يترك إلا نفر قليل من المصريين والمراكشيين معه، لذا انقلب عليه أهل بريدة ورفضوا دفع مزيد من المال له، ثم تبدلت عليه أحوال الناس في بقية البلدات، ونصحه البعض ان يغادر للصيام في عاصمته عند قرابته. ثم ان العفيصان جاءه من الشرق ومعه نفر غير كثير، تنقصهم الذخيرة والدراهم وبايعوه، واضطر لطلب العون من أهل الوشم والمحمل وسدير، وصار يهب المناصب لكل "بطاح وسفاح وذباح ونباح" فتدنت

هيئته، واستصغره حتى خدم ومماليك أسرته وكثر حوله الطامعون، والكثير يتربصون الإطاحة به والاستيلاء على الحكم. لذا فقد أعد السديري خطة مقتضاها انه سيتوجه لرابع، مع ستة آلاف مقاتل يستقبلهم أحد اشراف ذوي حسن ومعه مائتي مسلح، ويصعدون سفينته وهو قادم من مصر، ثم يتوجهون سريعاً نحو لغاط (الغاط حالياً) حيث سيجدون حشد ضخم من سدارى البدارين، يصحبونهم مع المجاهدين من الزلفي (الثويرات) نحو قاعدة سدير (جلاجل) ومنها للرياض للتخلص من ولاية خالد، الذي أبغضه كافة أهل الديار لسوء تصرفه، وشجعه لتحصيل عوائد منكرة لبطانته. كما قال السديري ان الإمام سيقنع والي مصر للإفراج عنه، إذا علم ان حرسه في السفينة سيتسلمون عشرة آلاف مثقال فضة عند تسليمه، ومثلها كل سنة تعادل ربع خراج نجد، بخاصة ان المصالحة بينه والسلطان عبد المجيد، رفعت أيديهم عن البلاد ولن تكون هناك مخالفة لنص الاتفاق. ثم بين لهم الرجل ان الإمام قد عرض ذلك على أكبر أبناء محمد علي في مصر، أثناء غياب إبراهيم باشا وهو سعيد باشا، كما عرض عليه هو أيضاً ألفي فضي كل سنة، لكن والده الوالي رأى ان الوقت مبكر للبحث في مسألة مغادرة فيصل لمصر ويلزم التريث. وقبل أيام جاءه رجل من الحاشية وقال ان عباس باشا ابن احمد طوسون، حفيد والي مصر أكبر سنناً من عمه سعيد، والاتفاقية التي أعدتها ملكة الانجليز فكتوريا، تشترط ان يتولى حكم مصر أكبر ذريته سنناً، لذا فهو الأحق بعد إبراهيم باشا بولاية العهد. وهناك أمر آخر وهو ان محمد علي كان يحب ولده احمد طوسون أكثر من بقية أبنائه، ولما مات نقل الحب والرعاية لولده عباس، فله الكلمة المسموعة عند جده أكثر من أعمامه. إلا ان الإمام لم يشاء مفاتحة عباس في ذلك، وهو يعرف التنافس بينه وعمه الأصغر منه عمراً، واستمر في علاقته مع حاشية الألباني قدر المستطاع. وحتى خورشيد باشا غريمه في معركة الدلم، توسط بينهما البعض وزال أكثر الجفاء، وقد أهداه الإمام مؤخراً بعض الخيل النجيبة، وهما ينزاوران بين الحين والآخر، لتبادل أحاديث ودية ومعلومات ومشاورات. لذا اقترح أبو سعد الاكتفاء بالسلام على الإمام بعد صلاة الجمعة، وتعريفه بنفسه وتجديد البيعة له وتسميته "إمام المسلمين" فذلك مما يُدخِل السرور عليه، أما الخيل فسيكلف أحد العارفين في المطرية ان يفحص لياقتها كهدية للإمام. وألح عليه ان يحضر مكانه بعد عصر الجمعة للقهوة، فسيجد بعض رجال ربما يستفيد من معارفهم، فقد أقاموا في مصر سنين طوال.

قدم البرازي هدية للإمام ست من أجود خيل العم، وبعد صلاة الجمعة سلم عليه وعرف بنفسه أنه زيد بن خثلان السبيعي، وكما أوصاه الرجل خاطبه على انه إمام المسلمين ويجدد المبايعة له على الكتاب والسنة، في المنشط والمكره وفي السراء والضراء، فأثنى عليه الإمام ورحب به، لكنه غادر سريعاً حيث تجمع كثير من طالبي البركة والحوائج. لاحظ العم تزامم عدد غفير من المصريين والسودان واللوبيين والمراكشيون، حول الإمام منهم مصابون بعلل ويطلبون منه الدعاء، وعلم لاحقاً ان

الأمر لا يقتصر على البسطاء والعامّة. بل ان بعض عليّة القوم يرون بركة عظيمة في الإمام، الذي يسمونه "ولي الله" ويزداد الأمر حتى يصل للشراكية، ولا ينحصر في العرب فقط. وقد اكتسب الإمام تلك المكانة عندما حضر لمصر وهو شاب (34هـ) واقام أثناءها على ضفاف النيل عشر سنوات، ثم عاد لنجد في كنف أبيه الإمام تركي، لعشر سنوات أخرى تولى في آخرها حكم البلاد، حتى حربه مع خالد وخورشيد التي انتهت بنفيه لمصر مرة ثانية. وقد اكتسب دراية عميقة بالطب والفقّه من أبيه وأحد أعمامه، كما قيل له ان جده عبدالله كان له معرفة بالتداوي، وكان يمارسها في الدرعية زمن والده الإمام محمد، ثم في ولاية أخيه عبدالعزيز. لقد ملاء صدر العم حبور جم من لقائه مع الإمام، وسأل الله ان يعيده للبلاد لمنع تلك الفتن التي وردت أنباء عنها في الأيام الماضية. حيث أفصح بعض آل مهنا في بريدة عن رغبتهم الاستقلال عن خالد بن سعود، وكذلك فعل آل سويد في جلاجل وآل مبارك في حريملا، بل وبعض من مزاريع منفوحة، مما يوحي بتقلت الأمور من يد ابن الإمام سعود، واحتمال نشوب مقتلة في وسط جزيرة العرب. وكان مما زاد الغم على العم انه رأى رأس ماله يتقلت، فقد زادت نفقاته لما استأجر جزء (شقة) من أحد البيوت، ليسكن فيها هو وعماله، كما نفقت بعض الدواب لمرضها، وزادت نفقة علوفتها ورعايتها. لذلك باع بعض الحمير الحساوية، المرغوبة في مصر ويسمون الواحد منها حساوي، كتحريف لمصدرها (الحسا) وقال آخرون انها بسبب تطاير الحسا من تحت حوافرها إذا أسرع، كما أنها تحمل الأثقال وتصبر على العلل. لذا أرسل اثنان من العمال مع المال لوالده، وطلب منه ان يقرضه ليسد قيمة قطيع منها لبيعه في مصر بريح مناسب. بعد أيام أرسل له البرازي يدعوه للقاء رجال من الصعيد، فوجد بعض السهول والسبعان والمصريين، لفت انتباهه رجل طويل القامة مفتول الشوارب مع لحية غير كثة، له طلعة بهية ومشهد جاذب وحديثه متزن ونظراته راكدة، بخلاف الكثير ممن راءهم في مصر، يصاحبه شاب يبدو أنه صهره أو رحيمه، وكلاهما يعتمر عمامة بيضاء وفي يده خيزرانة. تطرق الحديث لما جرى في مصر قبل شهرين من احتفالات والعب ومأكولات وألبسة، بدعوى ان ذاك هو عيد المولد النبوي، وما حصل فيه من مخالقات لا يرضاها النبي. وبررها أحدهم أنها من بقايا العهد الفاطمي العبيدي، التي تمسك بها بعض أهل مصر لشغفهم بمظاهر السرور والبهجة، والتي لم تشاء دولة المماليك ان تصادمهم عليها. ثم انتقل الحديث عن وصول قادم بنبأ كرية من الرياض، حيث أقبل من العراق أحد حفدة أخ للإمام محمد بن سعود، معه عدد من المسلحين ومال وفير، وتوجه جنوباً صوب الحابر. وكان الأمير خالد بن سعود يعاني ضائقة مالية، وقد طلب استلام زكاة السنة التالية، والعساكر المصريين معه أخذوا يلحون لاستلام مشاهرتهم، وكذلك الحال مع جنود العفيسان الذين أخذ بعضهم يغادر شرقاً. قال أحد الحضور ان ولاية خالد الحبشي (بكسر الحاء وتشديد الشين) إلى زوال، فتبسم مصري وبين انهم يسمونه "خالد البربري" لما جاء مصر قبل ربع قرن وهو صغير. حيث البعض يستهزؤون منه ويعدون من الخدم، وهو يتعجرف بالقول انه ولد للإمام سعود (أبو الشوارب) وأخ

الإمام عبدالله (المشقوق) لكنهم لا يبالون به. أتى رجل على لحم الضأن النجدي، وقال انه لا يوجد في السوق إلا نادراً، فقال البرازي هذا ابن خثلان لديه الكثير منها، وكذلك في بلبس حظائر ممتلئة، لكنه تعذر بأنها غالية الثمن وهو لا يريد سوى رأسين، يشتريها من سوق بولاق القريبة. رافق أبو سعد المصري عند مغادرته، وأشار للعم ليصاحبهما وعرف ان اسمه عبدالرحيم السمالوطي، وتساءل عما إذا لديه أرض يشتريها ابن خثلان، ليضع فيها مواشيه ويبنى سكن لعماله. فرحب الرجل مشيراً انه قد حصل على جزء من اقطاعية الأمير عباس (حفيد الوالي) شرق المطرية، وسيرسل له رجل ليشاهدها صباح الغد، كما سيستدعي أحد عماله لفحص البهائم ويشتري منها ما قد يلائمه.

في الطريق تعرف على الرجل على أنه من نجد، يقال له السلموي وادعى أن أهله جاءوا مصر قديماً، من بلدة سلمى في بلاد حاتم الطائي، فذكر له العم ان أجا وسلمى ليسا في نجد وحاتم من طيء قحطان اليمن، لكن الرجل أصر على قوله فتذكر الجد "جارهم ما دمت جارهم" فقال نعم ان نجد تمتد شمالاً حتى صفوان البصرة، وكثير من القحاطين يسكنونها منذ القدم. ثم تحول الرجل للقول ان السمالوطي خاله، ووالده ليس من قبلي بل من دسوق في الوجه البحري، ولديهم "أطيان عامرة" هناك عرف فيما بعد أنها تعني أراضي وافرّة المياه. لما خرجوا من العمران وبدت الفيافي القاحلة، قال الرجل ان أفضل ارض مصر الشمال، ولما فتح المسلمون البلاد أنشاء ابن العاص بلدة عند فسطاطه، ونقل العاصمة لها بدلا من الإسكندرية. ثم في زمن العباسيين بنى طولون شمالها القطائع، ولما أراد الفاطمية إنشاء عاصمة لهم أسس جوهر الصقلي "المهدية قاهرة العباسية" شمال القطائع كبلدة على هيئة حصن ضخم، لكن المعز لما جاء اكتفى باسم القاهرة. ثم أردف ان المطرية هي أيضا شمال البلدة في اتجاه التطور، وخلال فترة قصيرة ستصبح عامرة وأراضيها غالية الثمن، عند ذلك نفذ صبر العم على ما يقوم به الفتى من ترويح لسلمته، فقال له على سبيل الاستفسار ان زعيم الأمويين، لما كلف أخاه بولاية مصر (والد الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز) لم يرتح للفسطاط، لذا قرر نقل قاعدة حكمه جنوباً إلى حلوان، وأمر ببناء بلدة مجاورة للفسطاط ليقيم فيها "عسكر الدولة" لكن الرجل سارع بالاعتراض ان حلوان رديئة ويسميتها البعض "أم الهاموش والديبان" فأعرض عن مجادلته. عرض عليه أراضي كل منها في حدود عشرين إلى ثلاثين قيراط، ويعادل القيراط منها خمسة وعشرين ذراع عرضاً، ونحو أربعين ذراع طولاً، وبينها دروب وسكك عرضها بين عشرة إلى اثني عشر ذراع. أراد العم شراء جزء منها قريب من الزراعات، لكن الفتى أفاده ان خاله أوصى ان يبتعد النجدي عن الكنيسة المقامة هناك، ويكون في المقابل الصحراوي بعيداً عن أي إشكالات. وقبل العم ذلك لما تبين له ان تلك الكنيسة مقدسة لدى القبط، بل ويظن بعض المسلمين ان آية "وأويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين" هي عين ذلك المكان، لكن غيرهم لا يشككون في ذلك التأويل فقط، بل وفي رواية ان المسيح عليه السلام

وأمه، قد زارا مصر وأقاما فيه ثلاث سنوات. لذا تقبل العم اختيار أرض بعيدة شرقاً حيث لا حاجة له في زراعتها، بل سيبقيها حظائر للدواب وسكن للعمال، حتى يقضي الله أمراً مقدوراً. وللعلم فإن الحريق لم يكن فيها مقياس القيراط، بل ما يقاربه وهو "الشرب" بكسر الشين وتشديد الراء وسكون الباء، والأرض الجيدة هناك تعادل نحو ثلاثة أشراب، حيث يزرع الرجل ومن يعول أحدها في الموسم، ثم في الذي يليه محصول مختلف للتنشيط، وفي الثالث يرتاح الشرب ويتشمس، وتختلف "مساحة الشرب" حسب توفر المياه للسقيا، وعادة تكون في حدود 170 م² للمتوسط. لقد ارتاح العم لطبيعة الأرض شبه الصحراوية، لكن السعر الذي طلبوه (ثمانية فرانسة للقيراط) كان مرتفعا، وزاد في غيظه ان الثمن الذي رغبوا في دفعه مقابل أنعامه وركائبه كان متدني، لذا طلب العودة قبل ان يحل الظلام. وصلوا الأزبكية بعد المغرب ونصى العم المسجد، لقضاء الفريضة وانتظار جماعة العشاء، وفوجئ بعدها بوجود السملوطي الذي استفسر منه عما جرى، ثم طمأنه ان العمال لا يدركون الأمر، وانتهى القول على ان يتسلم العم مائة وخمسين فرانسة، ويأخذ الأرض ويتنازل عن كافة الحيوانات، وكانت تلك بيعة مجزية للعم جعلته ينام قريير العين.

في الصباح الباكر توجه مع العمال للمطرية حيث باشروا في بناء غرف لسكنهم، ومظلات للدواب وسائر خفيف يحيط الأرض. بعده عاد لوسط المدينة للتخلص من المكان المستأجر، ونقل المتاع منه وترتيب الذهب للجيزة، حيث طبيب آل حامد الذي وصفوه له. هناك اجتاز النهر ورأى الخضرة اليانعة، والأشجار الباسقة والبساتين المثمرة، وقام مرافقه باستئجار مسكن صغير بمبلغ زهيد، وعرف ان الجيزة ليست بلدة (أنداك) بل زراعات متفرقة، حول كل منها نحو عشرين إلى ثلاثين بيت طين، وتحيط بها مرافق للحيوانات من دواجن وماعز وضأن، وشاهد جاموس الماء الأسود الذي يشبه البقرة، لكنه لا يبغض العمل فيبقى معظم النهار يرفع الماء في ساقية يديرها، عليها بكرة ضخمة قد يصل علوها لعدة قامات. وبقرب النهر فإن منسوب الماء في حدود ثلاث إلى خمس قامات، أما تلك الأراضي البعيدة فيشقون لها ساقى، ويجلس على أطرافه عمال يديرون حلزون، طرفه السفلي في الماء والعلوي في الأرض، وعند دورانه يدويا يرفع الماء في حدود ثلاثة أذرع يسمونه الطنبور. لاحظ ان العمالة في مصر وفيرة ورخيصة وجلهم من أهل البلاد، ولا يحتاجون لجلبهم من الحبشة (الكبرى) أو الهند كما في الحريق، كما ان غالبيتهم يعملون بجهد وتفاني، مع ان البعض يجلسون على ضفة الماء يحتكون، يشبعون من خشاش الأرض ويشربون من النيل، لا يحتاجون للعمل حتى لا يجوعوا. علم العم ان هناك سوق كبير غير بعيد عنهم، يقال له بولاق التكرور تبين له أنه فرصة صغيرة للسفن النهرية، وينزل فيه حجاج الزنوج في درب سفرهم للبيت الحرام، وشاهد هناك مشاجرة بين بعض المصريين والتكرانة كما يسمونهم في مكة الكرمة. سرعان ما حضر خفير العمدة واقتاد بعضهم لديوانه، وانقضى الأمر سريعا كما بداء، ولما تحدث مع أحد "شيوخ التكرور" علم أنهم مالكية

وملتزمون بالسنة المطهرة، مع شيء من ممارسات وأفكار الصوفية. فهم منه ان بعض المصريين يريدون خداعهم، ويستولون على بضاعتهم بأبخس ثمن، وانهم يجلبون معهم حبوب دوائية ولوز وجلود الأنعام، لكن ما يلفت الانتباه هو الأحجار الكريمة وقطع الذهب الخام. أنك العم حمل ريات فرانس (تريزا النمساوية) التي تزيد عن ثمانية أرطال، لذا فكر في استبدالها بقطع الذهب الخفيفة التي يسهل حملها بخفاء، ثم ارسلها لحلة الحريق حيث الصاغة المهرة، لكنه خشي الغش وطلب من الشيخ قطعة ذهب في حجم النواة المتوسطة، ولما عرضها للبيع على أحد صاغة بولاق عرض عليه سعر جيد، ثم بعد المحاوره فهم أن هؤلاء القوم حادوا الطباع سريعو الغضب، ولا يقبلون الجدال بل الضرب لمن يشكون فيه، أما الغش فهم مغلظ التحريم عندهم. لذا قرر الجد شراء ذهبية مختلفة الحجم وبسعر مناسب، ذات وزن خفيف فقام بإخفائها في بطانة عبائه ليلا، وأبقى معه بعض الفضة للنفقة ودفع غائلة المتلصقين. أمضى العم أوقات مع ذلك الشيخ الزنجي، واسمه عبدالرحيم الأنصاري وفهم انه يقيم في الجيزة عدة شهور كل سنة منذ رجب وحتى عودة آخر الحجاج، ويعمل على تدبير كافة متطلباتهم لحين رجوعهم لبلادهم. كما تعرف على بعض أبناء بلده وهي تمبكتة، الواقعة في جنوب غرب القيروان على حافة الصحراء العظمى، ذات الرمال الناعمة القاحلة، والكثبان المتحركة، لكنها مركز للتجارة والعلوم. حيث إنها سوق تتجمع فيها منتجات وسط وغرب أفريقيا، من النحاس والعاج والتوابل والقماش، يأتي اليها تجار من عرب قحطان وقبائل الموريك والطوارق، لشراء ونقل البضائع غرباً لمصر أو شمالاً نحو مراکش والأندلس. أما العلوم وبخاصة الفقه فتمبكتة عاصمة المذهب المالكي في تلك الصحارى، ورغم ان أكثر السكان لا يقرأون العربية، لكن أعداد غفيرة من الطوارق يأتون من نوق الشط، يحملون الكتب المخطوطة والمطبوعة، في مختلف العلوم الإسلامية واللغة العربية، وقد أهدها الرجل نسخة جيدة من "الفية ابن مالك" وكتب أخرى في الشعر والتاريخ اشتراها منه.

شعر العم بالضجر والقلق في مسكنه بالجيزة، حيث اشتد الحر وبدأت تباشير فيضان النيل، فتكونت مناقع مياه زادت معها أسراب الهوام الطائرة، من هاموش وذباب وناموس وقوارص مزعجة. كما استبد به القلق من جراء تطاول فترة تعاطيه العلاجات، وتأخر عودة عامله من الحريق مع الدواب، لكن ذلك انقضى لما جاءه حارس المطرية، يبشره بوصول الحمير الحساوية مع بضع بقرات ونياق مدره، وعدد كبير من الخراف الصغيرة السن. لذا سارع بالتوجه مع رجاله لركوب سفينة صغيرة، يسمونها المعدية تستطيع المناورة مع تيار الماء الجارف في زمن الفيضان. كان الحر شديد والهواء ساكن ورطب يصعب تنفسه، وفي المطرية بداء بقراءة رسالة والده، بخصوص استمرار القحط مما أدى لخفض أسعار بهيمة الأنعام والمواشي. وما نقص من الدراهم التي أرسلها، وسره أنهم لم يضطروا لكثير من الاقتراض، وساءه نباء اشتداد المرض على جده، وعجزه عن الذهاب للمسجد مع الجماعة. كما ساوره القلق

من أبناء انفضاض القوم من حول الأمير خالد بن سعود، حيث تضجر الناس من شجعه وتصرفات عساكره الغرباء، ورفض الكثير دفع الخراج لعماله، كما تزايد نفوذ ابن ثنيان في البلدات المحيطة بالرياض. طور العم علاقات وتعارف مع بعض التجار في مصر، سواء من جيرانه أو في بلبس وإمبابية، أو غرب الجيزة في النزلة، وبداء اتصالات معهم لبيع الحلال سريعاً، حيث نفقت في الطريق احدى الأبقار، وعدد من البهائم الأخرى التي أثقلته بنقص في رأس ماله. عدد من أهل جنوب اليمامة المولعون بحليب البقر، أو صوه بجلب بعضها من هناك، ويسمونهم مرشدة لا يشبه حليبها أو لبنها وزبدها الجواميس، ذات الدهن الغليظ والرائحة غير المستحبة، وتنتشر الأبقار المرشدية في الدلم والفرع وبرك والأفلاج، ويرسل بعض أهل الوشم من يجلبها لهم. بادر فوراً لإرسال عامل آخر للحريق وأعطاه قطع ذهبية من تمبكتة، مع رسالة لوالده لشراء المزيد من المواشي وارسالها سريعاً، حيث اقترب رمضان والسفر للحريق عن طريق البحر ثم الحناكية وضرماً يستغرق أكثر من عشرين يوم، أما العودة مع الدواب براً فيتطلب قرابة الشهرين، وهو يريد تصريفها قبل موسم الحج. رأى العم لزوم استئجار مسكن قرب العتبة الزرقاء (الخضراء لاحقاً) مجاور لمسجد لقضاء شهر الصوم فيه، بعيداً عن الهوام الطائرة بكثرة قرب بحر النيل. وفي لياليه الفضيلة استأنس العمال بكثرة النوم في حر النهار، والسمر طيلة الليل مع احتفالات بهيجة يقيمها المصريون، حيث تضاء مآذن المساجد والطرق بالمصابيح والفنارات والفوانيس، وبألوان وزخارف متنوعة تجلب السرور. أما الأطعمة فهي أمر لا مثيل له فيما سبق ان رآته عيناه في أسفاره الكثيرة، كانت هناك أطعمة لوجبة الإفطار ثم أكالات ما قبل منتصف الليل، وغيرها لوجبة السحور تتكون من الحساء والبقول والخبز. إلا ان العم لم يستطب معظم تلك الأطعمة، التي تمتلئ بالبصل والثوم والتوابل الحريفة، وغالبية ما فيها من لحوم هي من سقط المسالخ، ومن الدهون الغليظة المخلوطة مع نشاء الذرة. أما الشائع عندهم فهو الحلوى من أصناف وفنون متنوعة، فهناك ما جلبه الفاطميون من الأندلس، وأخرى من الشام والعراق والبلقان وتركيا، لكنها جميعاً تنتشابه في مكوناتها الرئيس، وهو دقيق الحنطة المقشورة (الأبيض) مع قدر جم من السكر والدهن يضاف لبعضها شيء من الجوز واللوز، وهو مما لا يستطيه العم زيد، ومن أشهر تلك الحلوى الكنافة والقطائف، التي قراء ان صاحب التفسير الموجز (السيوطي) قد وضع فيها كتاب "بيان اللطائف" لكنه لم يرها في مكان أخرى حيث يمضي عادة رمضان عند أهله. إضافة لذلك هناك ألوان متنوعة من المشروبات، أفضلها ما يقدم بارداً في ليالي رمضان الحارة، فهناك عصائر الفواكه ومشروبات أخرى مثل الخرنوب والعرقصوص، أما السويبا فتخوف منها لأنهم في الحجاز يقولون إن شعيرها قد يتخمر، لكنه وجدها مختلفة في مصر حيث لا تحوي كثير من الشعير بل الحليب. وأخبره أحد عماله ان الباشا الكبير والي مصر (محمد علي القولي الألباني) يقيم مأدبة إفطار حافلة، كل بضعة أيام جوار أحد قصوره في شبرا أو الأزبكية، وسحور أسفل قلعة الجبل في درب الأحمر، حيث سالت دماء حشد من المماليك الحكام قبل ثلاثين

سنة. أعجبه حلقات ذكر الله والتلاوة والدروس، واستاء من بعض مظاهر البدع الصوفية، حيث حلقات للرقص والدوران مع مديح بدعي، قد يرتقي بعضه لحدود الشرك. لكنه لم يجارهم وهو في دارهم، وتخوف من الإنكار عليهم بغلظة فهم يبغضون الوهابية والحنابلة لما يدعون ضدهم من تزمت، فأثر السلامة واكتفى بإنكار ذلك مع من يأنس فيه الرشاد والتمسك بالسنة ونبذ البدع، وبخاصة ان ما زال في مصر قوم من الروافض الذين تخفوا زمن الأيوبية. لاحظ العم ان هناك أهل الحسبة الذين يعزرون من يجاهر بالفطر في رمضان، والغالبية ملتزمة بذلك لكن بعض أراذل البشر من بشناق وأرناؤوط لا يلتزمون، ويشربون الدخان عصراً مدعين أنهم على سفر، ولا يتجرا عليهم المحتسبون لأنهم مسلحين.

بعد فجر يوم العيد مشى الجد للجامع القريب، حيث لا يخرج الناس للصلاة في الفسح، نظراً لكبر مساحة البلدة وتباعد أطرافها، ولاحظ الزحام الشديد هناك من كافة الأعراف، وحتى التركمان والروم المسلمين اصطفوا للصلاة، رغم ان بعضهم يمارس الرذائل، إلا ان أكثرهم يوقرون صلاة العيد، ويرونها تسد عن بقية الفروض اليومية التي لا يطبقونها. لما لاحظ ان الجماعة يكبرون سوياً بصوت واحد استنكر ذلك، لعدم ثبوت فعل الصحابة له، لكن أحدهم شرح له ان القصد من هذا هو تعليم الحضور ممن لا يعرفون العربية، لكنهم يتدربون عليها أثناء التكبير الجماعي. التقى أحد السبعان الذي بين له ان الإمام فيصل أعد طعام جماعي، في درب الحنفية وسيحضره بعض أهل العارض، فتوجهها سوياً إلى هناك ليلاحظ التوتر في المكان، وكثرة الجنود المسلحين من حرس الوالي يحيطون بالإمام. الذي بدا في قلق واضطراب ولا يكاد يرد السلام، بل هو ساهم في وجوم شارذ الذهن، يجلس بجواره أحد دالاتية الباشا بثيابه المطرزة، يدور بناظره يتفرس في الوجوه عله يرى ما يريب. اندهش العم من ذلك الحال غير المعتاد، ولما جلس مع حشد من أهل اليمامة قبل الظهر، تعرف على المأساة التي جرت في الرياض، فقد قالوا ان بريد عاجل ورد لقصر القلعة قبل أيام، ارسله كبير العساكر هناك مفاده ان العفيصان قد نصح الأمير خالد ان يتوجه للصيام في الأحساء، وأنه سيتولى تدبير شؤون الرياض لحين رجوعه. وقد قال الضابط ان الأمير تركهم بدون قبض مشاهرتهم، وليس لديهم ما يكفي من العتاد والمؤونة، كما شاعت في الرياض أقاويل ان العفيصان أراد ان يخلو له المكان ليتولى الحكم في نجد. تداول الحضور حول ذلك وعما اذا كان الرجل سيعمل تحت إمرة عساكر مصر مثل خالد، أو أنه سيعمل على طردهم من البلاد، وهل سيتقبل أهل العارض حكمه وهو غريب عنهم؟ وقال آخرون ان الرجل كان مجرد مأمور عند الحكام من آل سعود، ولن يدعه أمراء الوشم والمحمل وسدير يتولى الحكم، لكنه غدر بسيدته الذي جلبه من مهربه في العراق، بعد ان سخط عليه خورشيد وأراد الفتك به. ساهم العم في ذلك بالقول ان الجميع يعرفون آل عفيصان، واخلاصهم للسعوديين منذ القرن الماضي، حيث نصحوا أصهارهم آل عايد أمراء الدلم لينضوا تحت لواء الدرعية، ولما رفضوا أفادوهم انهم مقتنعون

بصلاح الدعوة لنبذ البدع، وانهم يريد التقيد بالسنة لذا فسيكونون مع آل سعود في السراء والضراء، ولا يتصور ان يكون العفيصان طامع في كرسي الحكم، وهو يعلم جيداً ان هذا الأمر لا يصلح إلا اذا تولاه أحد من ذرية مؤسس دولة الدرعية. رد عليه أحد الحضور بالقول ان طباع القحاطين رديئة، والعفيصان خالف أصهاره حكام الخرج لمصلحة له، ولا يستبعد ان ولدهم هذا يغدر بخالد بن سعود، ويزين له مغادرة قاعدة حكمه ليذهب للهوف حيث قاعدة العفيصان. وتساءل آخر عما إذا كان باشا مصر يسعه التصرف، حيث معاهدة لندرة منعه من التدخل في جزيرة العرب، ولماذا يبقي الإمام فيصل مهان لديه؟ ختم الجدل صاحب المكان بنصحهم للتريث حتى يصل البريد، عما إذا كان خالد سيعود بعد العيد. استفسر رجل عن ابن ثنيان القادم من الشمال، ليطرد الأمير خالد ويستولي على الحكم، وما إذا كان يعمل لصالح الإمام فيصل، حيث سمع أحد المقربين للباشا يقول ذلك، وهو لا يريد ان يستقل فيصل بحكم نجد ويوقف ارسال الخراج.

انشغل العم بشؤونه وراودته فكرة شراء بعض الحاجيات، وارسالها لوالده لتباع في اليمامة، وقرر البحث عما يصلح للقوم هناك من ثياب وقماش للشتاء، وكذلك أصناف من الطعام من توابل وحبوب وسكر، إضافة للقطع المعدنية المستخدمة في الزراعة، أو منازل عامة الناس وبخاصة المصابيح وأدوات القطع. كان على دراية بما يتوفر في مسقط والشارقة والقطيف والبصرة، وما يفضله السكان من نوعيات وما يتحملون كلفة نقله الباهظة، ومراعات ان السبل بين مصر ونجد آمنة إلا ان مكوسها عالية. لذلك الغرض سافر للصعيد الأدنى، ثم انتقل للإسكندرية حيث السفن الضخمة تنقل السلع من البلدان الشمالية، وكل ذلك ميسر في مراكب نهريّة مريحة وسريعة، لا يطيق البعد عن المطرية كثيراً في انتظار وصول قافلة مواشيه. وانقطع قلقه لما وصلوا متأخرين لكنهم قبل الحج بعشرين يوماً، كافية ليتصرف في كافة ما ورد له، وبربح مجزي حول جزء منه إلى قطع ذهبية بوزن النواة، واشترى بالبقية بضائع يحتسب ان جماعته سيتمكنون من بيعها في الدلم والرياض بعائد جيد. ثم قام بترتيب سفرها مع احدى القوافل قبل شدة البرد، وبين لوالده وأعمامه كلفة شراء كل منها ونقلها، وأوصى بسرعة تصريفها بربح متوسط يذهب ثلثه لمن يجلب القيمة، والباقي مع رأس المال يعاد إليه في شكل بهائم وتمور وسلع تناسب المصريين. جاءت مع القافلة أبناء مشوشة عن الحال في الرياض، حيث قام البعض بتسهيل دخول ابن ثنيان للعاصمة، بينما الأمير خالد مازال في الأحساء ينتظر إشارة عودته للحكم. وعلم من رسالة والده ان سبعان الحريق عن بكرة أبيهم، رفضوا قطعياً المشاركة في تلك الفتنة بين آل مقرن، أما القحاطين والعنوز فقد انقسموا على أنفسهم، فحاض نفر منهم فيها واكثرهم مؤيدين للثنيان، متعللين ببغضهم لمن جعل نفسه ألعوبة في يد عساكر الباشا. كما تطير آخرون من خالد لأن القحط قد اشتد في زمنه، فهلكت الزراعات ونفقت البهائم، واضطر الأهالي لبيع أنعامهم بأبخس ثمن، لمن يقدر على تدبير طعامها. لقد شهدت أعماله نجاح

متوسط، فقد غدا قادراً على تحقيق فائض من أعماله بين اليمامة والقاهرة، وأصبحت تجارته تمول نفسها بدون حاجة للاقتراض، وكل ما عليه ان يرتب أحواله لتفادي حدوث خسارة، أما لمخاطر الطريق أو الأمراض، أو تعثر تحصيل قيمة البيع كاملة. وهذه الأخيرة هي الآفة الرئيسية التي يحتاط لها دوماً، فكم من رجل خسر أرباحه أو جزء من رأس ماله، لعدم تمكنه من تحصيل دراهمه، لذا فقد كان يفضل البيع نقداً بربح ضئيل، على مخاطر البيع بربح وفير مع احتمال عدم السداد. ولا يقبل البيع لأجل إلا لمن يثق في ملائتهم وأمانتهم، أو يطلب منهم ضماناً شخصية أو عينية، مما يعني العجز في بعض الحالات عن تحقيق الربح المأمول. لكن فكره الذي عاش معه طيلة حياته المديدة، كان يحثه على الربح القليل مع مخاطر قليلة، بدلاً من ربح كثير مع مخاطر عالية.

بعد عصر عرفة جاءه موفد من السهلي، يدعوه لصلاة العيد بكرة في جامع الحنفية، ثم تناول طعام الضحى مع صحبة تصلح له! كان العم حينذاك متكدر الخاطر (تدني البيوريثم) لأمر خاصة جالت في خاطره، وهو يتذكر تلك الأيام في المشعر الحرام وأداء المناسك. ولما ردد أبيات المتنبي عن العيد وهو في غربة مصر، زاد شجنه وحنينه للأرض والوطن والناس، لكن ما فاقم الكأبة أبيات فسطاط أخرى: -

بما التعلل لا أهل ولا وطن * * * * * ولا نديم ولا فرح ولا سكن
أريد من زمني ذا أن يبلغني * * * * * ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
فما يُدِيمُ سرورٌ ما سُررت به * * * * * ولا يرد عليك الفأنت الحزن
ما كل ما يتمنى المرء يدركه * * * * * تجري الرياح بما لا تشتهي السفن
سهرت بعد رحيلي وحشة لكم * * * * * ثم استمر مريري وارعى الوسن

عند المغيب وهو يتأهب للإفطار أقبل عليهم عامل السهلي، يلح في حضوره للحنفية لصلاة العيد، فلما دخل ذلك الجامع لاحظ كثرة اليماميين فيه، ثم شاهد أحدهم بعد الصلاة يرتقي المنبر المرتفع. ومن الكلمات الأولى بالتكبير الشرعي، لاحظ أنه يخطب بلهجة فصيحة متزنة، وصاغ كلماته بسجع نجدي خفيف على الأذن، وأوصى الحضور بالتمسك بالكتاب والسنة، واجتهادات السلف الصالح في القرون الثلاثة الأولى، والبعد عن الشبهات والدنايا، ثم ختم ببندة عن الأضاحي وتوزيعها، وجواز الأكل منها والإهداء، وليست فقط للمساكين "القانع والمعتز" منهم، ولا تقتصر على البائس الفقير فقط، وجواز تجفيف وخرن بعض منها. سأل أحد الرفاق عن ذلك الخطيب فعرف انه عبد اللطيف بن عبدالرحمن، أحد حفدة الشيخ ابن عبدالوهاب، وعرف انه يدرس في الإسكندرية النحو والأدب والتفسير، على المذهبين المالكي والحنبلي حيث مشايخ من الغرب، ومعلوم ان نجد والأحساء كانت على المالكية سابقاً، أما الحجاز فعلى الشافعية والزيدية لأشراف مكة واليمن. ثم مشوا لدار السهلي الذي رحب بهم على مائدة حافلة،

ومازح الحضور بالقول انهم لن يذبحوا الأضاحي إلا قبيل الظهر، وأكثر الحضور أقبلوا على الخبز والزبد والمقليات والحلوى، وشربوا من حليب النياق ولبن البقر الرائب، وأعرض الكثير عن حليب الجاموس أو شرب الشاهي، الذي كان رخيصاً في مصر، حيث يجلبه الإنجليز من الهند بكميات كبيرة عبر القلزم، ثم ينقلوه على قوافل الجمال والقوارب إلى السفن في دمياط ومنها لأوروبا. غادر البعض وانتشروا بعد الطعام، وبقي آخرون قال أحدهم للعم ان حدسه حول العفيصان خطأ، فها هو قد خان ولي أمره (خالد بن سعود) بعد ان مهد له الذهاب للهفوف، ثم دبر دخول الثنيان للرياض وبإيعه وحرص البقية على نقض بيعتهم والولاء للثنيان حاكم نجد الجديد. لكن العم شكك في تلك الرواية، وأيده تميمي من الوشم وقحطاني من الخرج، فقالوا ان العفيصان قد بذل قصارى جهده لتوطيد حكم خالد، لكن ذلك الأمير كان مضطرب الرأي، مشوش الفكر وضعيف الإرادة. فقد أمضى سنوات قائم مقام ضابط عساكر مصر، يلتزم بأمره ونهيه لاحول له ولا تدبير. وقد كره غالبية أعيان البلاد الانصياع لأوامره، كما تشائم البعض من القحط في البلاد منذ وصوله لها، كما ان اضطراب حاله بين التزمت والتسيب، جعلتهم في حيرة من التعامل مع تقلباته المفاجئة، وتقريبه لموالي والده وقبول مشورتهم نفر الناس منه. تبسم أحد الحضور وقال إنه شبيه بكافور مولى الإخشيد، مع نقص حاد في الفطنة والدهاء. رد عليه آخر بأن خالد ذكي وحصيف، لكن اليماميون لا يحبون ذوي البشرة الداكنة، ويدعون ان أمه عبدة وهذا خطأ، لأن أمه من أسرة عريقة

لكن والدها تسرى بإحدى الجوارى، ثم انجذبت بشرته لجذته لكن أخلاقه حميدة، ولم يُعرف عنه خيانة وخسة قط. ولما رأى العفيصان بغض القوم لولايته رتب هذه الطريقة، ليضمن جعل الأمر في يد من يقدر على سياسته بدون إراقة دماء. تساءل آخر عن الثنيان وأسلافه، فقال لهم العم إنه حفيد أحد إخوة الإمام محمد بن سعود، وهو رجل كان يقال له في الدرعية "الأمير الضرير" وهو أكبر إخوة المؤسس، لكن ضعف بصره حال بينه وتولي الحكم، وكان ذو ورع وتقوى وصلاح، وله اليد الطولى في جمع شمل الإمام محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. بادر أحد الحضور من سبعان رماح، للقول ان الساعي في ذلك رجل منا هو السويلم، الذي درس على الشيخ في العيينة، ولما قام أميرها بطرده وزوجته من البلدة، انفاذاً لتعليمات العريعر بعد التشدد في نبذ زيارة القبور، لم يجد مأوى سوى اللجوء لتلميذه في الدرعية متخفياً ممن يضمرون له السوء. وكان السويلم يعلم ان محمد بن سعود غير راضي عن تشدد الشيخ، وربما يرفض بقائه في الدرعية حتى لا يفقد منصبه، لذا فقد فكر ان أفضل السبل لإقناع الأمير محمد هو أخوه الأكبر، مع الاستعانة بالعلاقة النسائية الحميدة. حيث اجتمعت زوجته العرينية مع زوجة الشيخ المعمرية وزوجة الأمير الكثيرية، وقرروا مفاتحة الضرير بصلاح دعوى الشيخ محمد، وانه لا يريد إلا نبذ البدع ونشر التوحيد والسنة، ولينصرن الله من ينصره. ولما افتتحت ثنيان بن سعود حادث أخاه في ذلك، كما قامت النسوة الثلاث بدور في الأمر، وألح عليه الجميع ان يبادر لانتهاز

الفرصة المباركة، بحضور الشيخ الفاضل إلى امارته، فوافق شريطة ان يلتزم الشيخ بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وان يتجنب الفظاظ والغلظة والتعسف، مثل الذي حدث أثناء وجوده سابقاً في الحجاز ثم العراق والشام، وقريباً في الأحساء وحريملا والعيينة.

بعد ذلك انتقل الحديث للتساؤل عن تواجد ذرية إخوة الإمام محمد بن سعود في مصر، فقال السهلي ان أولئك الإخوة هم ثلاثة، أكبرهم ثنيان الذي هذا من ذريته، لكنه لا يذكر انه خرج للمنفي مع عساكر إبراهيم باشا، لكن بعض قرابته من آل ثنيان بن سعود ما زالوا يتواجدون في الفسطاط. وأما ذرية أخاه مشاري بن سعود فقد جاء كثير منهم للمنفي هنا، ومنهم ذاك الشاب الذي غادر عائداً للرياض قبل نحو خمس عشرة سنة، ليقيم عند خاله الإمام تركي ويدبر اغتياله في الجامع. وأخوهم الثالث فرحان شارك بعض أبنائه في القتال للدفاع عن الدرعية عام 33هـ، ثم سجنهم الباشا ورحل بعضهم لمصر. تحدث آخر عما سمعه من أحد الخدم، عن تحفظ والي مصر على الإمام فيصل، حتى منعه من النزول لصلاة العيد اليوم، وأبقاه عنده للصلاة في جامع جبل القلعة الصغير، كما أحاط عدد أكبر من الخفراء بالإمام لمراقبة حركاته وسكناته، ولا يسمح إلا لنفر قليل بمجالسته، وإنه متخوف ان حركة الثنيان في الرياض بتدبير من فيصل، وربما يزعم الهرب ليسترد حكم نجد. اندهش آخر من ذاك التصرف، فلم يعد لمحمد علي أي نفوذ في وسط جزيرة العرب بعد اتفاق لندن، كما وردت أنباء ان السلطان عبدالمجيد، أعد جيش ضخم ليتوجه للحجاز، ليستعيد الحرمين في ملكه بالتعاون مع الأشراف. وقال آخر ان فيصل بن تركي يعرف قدر المساهمة التي قدمها بنو عم جده (عبدالله بن محمد) أثناء مراحل تأسيس إمارة الدرعية الكبرى، التي امتدت آنذاك من جنوب العراق حتى شمال اليمن، ومن شمال مسقط حتى جنوب الشام، إلا انه رغم ذلك لا يثق في ذريتهم، خاصة بعد اغتيال أحدهم لوالده في المسجد، لذلك فهو على ثقة ان لا علاقة للإمام فيصل بتحركات ابن ثنيان. ثم أكد ان تلك الحركة بدأت من البصرة، وربما بإيعاز ودعم من واليها، الذي يتصرف بأوامر من إسطنبول، التي يبدو ان شدة عدائها لوالي مصر آنذاك، جعلهم يقبلون عودة جناح بعيد من البيت السعودي، ليسيطر على نجد ويقضي على النفوذ المصري هناك. ذكر مصري يُروى أنه من أصول نجدية، ان الباشا الكبير يود ان يستمر في الحصول على قسط وافر من خراج نجد، حيث أجود نوعيات لحوم الضأن والحنطة والتمور، وفيها خيل عربية أصيلة وركائب نشيطة. ثم أضاف انه لذلك أرسل أكبر أبنائه طوسون ليغزوها قبل ثلاثين سنة، فرد عليه أحدهم انه ليس أكبر أبناء الباشا، فأكد كلامه بدليل ان محمد علي سماه بذلك، على جبل في البلقان يقال له توسان ذو صخور صلبة، لما كان يعمل مع والده في تجارة التبغ، ولما جاء لمصر بعد ذلك سمي أولاده بالعربية إبراهيم وسعيد. انبرى حينذاك السمالوطي بالقول ان تلك "حكاوي فلاحيني" وان أكبر أبناء الباشا هو إبراهيم يليه سعيد ثم احمد طوسون وبعده الصغار، وقد كان يحب طوسون كثيراً بسبب غلاء أمه،

كما أعجب بطبيب سجايه وكرمه وحب الحاشية له. ثم ذكر قصة اختياره لغزو الحجاز، وهو أنه دبر منافسة بين أبنائه لمعرفة قدرتهم على قيادة الجيوش، فأحضر بساط عريض وضع في وسطه برتقالة، وأعطى كلا منهم سيف قصير، وأمرهم بجلبها بدون وطء السجادة، فلم يستطع الكبار ذلك لكن طوسون طواها حتى اقترب من الثمرة، ثم غرس سيفه فيها وأحضرها لوالده! عند ذلك قال الباشا ان هذه هي خطته لتنفيذ أوامر إسطنبول، فسيرسله ليحرر المدينة ثم مكة من قبضة الخوارج الوهابية، ثم يطوي الأرض شرقاً ليهدم عاصمتهم في وسط الصحراء. لكن طوسون لقي هزيمة فادحة خارج المدينة المنورة، وبدل ان يرسل أحد أبنائه قرر الذهاب بنفسه لإنقاذ الحال، ولما وصل الحجاز تولى القيادة وحرر الحرمين، وزوج ولده من امرأة هناك ليسري عنه كدر الهزيمة. وبعد فترة وجهه نحو نجد للقضاء على الوهابية، لكنه لما بلغ القصيم تصالح مع الإمام عبدالله بن سعود، وعاد لأبيه في مصر بمناقضة لأوامر الخليفة في إسطنبول، المتضمنة وجوب القضاء كلياً على السعوديين في عقر دارهم. ومع هذا ترجى محمد علي السلطان امهاله الوقت، لحشد المزيد من القوات للوصول للدرعية البعيدة والمحصنة، لكن طوسون مات بعيداً عن والده في دمياط، فيما يظن أنها مكيدة مسمومة من اخوته، فلم يجد الباشا بداً من إرسال ولده الكبير (إبراهيم) ليهدم الدرعية ويحضر الإمام عبدالله أسيراً. لما سمع البعض هذه الرواية في مجلس أبي، قال أحدهم ان هذا "ما لم يسرده التاريخ" فرد عليهم وهل تظنون ان رواية السمالوطي كلها دقيقة؟ أو ان فيها "خذ وخذ!" فتبارى البعض لسرد جوانب أخرى مختلفة.

أمضى الجد الشهور التالية يتابع رحلات تجارته، من المطرية إلى المحمدي التي طرح الله فيها بركة كافية للقانع، كما يتسمع لأخبار بلدته وقيام الكثير بمبايعة الثنيان، الذي ظنوا ان فيه بادرة خير لأمن ورخاء الديار، كما ترده أنباء من والده عن أحوال أسرته، بخاصة جده علي الذي تكالبت عليه علل الشيخوخة. كما أمضى أوقات متفرقة لزيارة الفيوم، والواحات غربها في صحراء لوبياء، وتعامل مع بعض أهلها المتسمين بالشيمة والكرامة، مع قدر غير قليل من العنف والقسوة. قيل له ان الفيوم سميت كذلك لأن المسلمين لما دخلوا مصر استعصت عليهم ألف يوم، تمكنوا بعد حصارها الطويل من فتحها ودخل أهلها في دين التوحيد أفواجا. لكنه لم يطمئن لتلك الرواية حيث يعلم ان ابن العاص لما توجه لمصر بأمر من عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) لم يطل حصاره لبابليون سوى أيام، والعاصمة (الإسكندرية) لم تستغرق طويلاً. فقد كان أهل مصر في ضيق شديد من الحكم البيزنطي في القسطنطينية (إسطنبول) ورحبوا بالقادمين من المدينة المنورة، ذوي الخلق العظيم والعقيدة الخالصة. ثم تزوج ابن العاص من إحدى بنات نبلاءهم (اسمها تدوا) أخبرت قومها عن طيب شمائله، وتزوج كثير من الصحابة مثلها، فتحول كثير من القبط للإسلام عن رضى، وبقي آخرون على ملتهم يعيشون في رغد وسلام في عهدة وذمة المسلمين، لا يجروا أحد على ايدائهم ما داموا يدفعون بديل الزكاة. كان أحد أهم معالم الفيوم بحيرة ضخمة، يسمونها على أحد

وزراء فرعون موسى، وكان من غرائبها انها تستمد مياهها من فيضان النيل صيفاً، لكنها ليست عذبة إذ تتسرب اليها ينابيع في باطنها تأتي مياهها من بحر الروم، الواقع شمالها بمسيرة يومين. لقد كان العم يمضي بعض الوقت في التنزه على ضفتها، التي لا يرى طرفها الآخر لبعده، وكان يتناول مع بعض الرفاق والعمال طعامه هناك، حيث يصيدون أسماك المياه المالحة والعذبة، ثم يقدمونه لهم حنيذ بعد ان يغطوه بقش القصب والنخالة والأعشاب التي تنمو على جوانب البحيرة. ذات يوم وهو وصحبه جالسون بانتظار الطعام، شاهد جماعة من المصريين ومعهم نصراني، يخرجون منها عراة بعيداً عنهم ليرتدوا ملابسهم، وعرفوا منهم انهم يغوصون في القاع، ليجثوا عن كنوز قارون، التي يقال ان الله قد خسف بها فيها. ولم يتمكن العم من أخذ معلومات أوفى، حيث كان مرتبط بمراجعة أحد الأطباء في البلدة، ثم انشغل في الشهور التالية بمتابعة التجارة، كما دخل في تجارب العلاج والزواج.

في نهاية هذا الفصل من السيرة، أبين لكم أيها الأحبة ان والذي رحمه الله، قد أخذنا إلى الفيوم في ستينات القرن العشرين، التي لم يزرها قط رغم وجوده في مصر، وما قصه عليه عمه عن تلك الديار. وقد كان السبب الرئيس الحاحنا على السفر لمكان ما أثناء عطلة منتصف العام الدراسي، وما أقنعه به سائقه الخاص من ملائمة زيارة المنطقة التي ينحدر منها. كما حث رمضان الجرداوي على وجوب استئجار سيارة ثلاثة متينة! حيث المرسيدس والأوبل رقيقة وقد لا تتحمل الطرق الريفية، وصباح المغادرة أحضر كاديلاك عتيقة يقودها قريب له، تبين لي أن طرازها ينوف على عشرين سنة مضت، لكن والذي رحمه الله استحي ان يكرشه. ولما أوشكنا على المغادرة سمعنا هدير محركها ورأينا دخانه، وتبين انه ليس أصلي بل استبدل بأخر يعمل على الديزل (سولار ومازوت أو كيروسين؟) وقرر أبي ان أركب في المقدمة مع رمضان (أبوناصر) ووالدتي حفظها الله وشقيقتي، فاطمة ونورة الثانية طيبة الأطفال حالياً، حيث كانت لي أخت من والذي اسمها نورة أيضاً واختارها الله لجواره وهي صغيرة. وركب والذي في الكديك الهرمة ذات الدخان الكريه، ومعه أشقائي زيد وعبدالرحمن وناصر، والسيارة الثالثة خلفنا فيها الدادة والعمالات. أوصاني والذي ان لا يزيد السائق السرعة عن مائة كيلو، حيث تقاد السيارة بالسائق أما فوق ذلك فهي تفقد نفسها، لكن مركبته موديل الاربعينات كانت عاجزة عن تجاوز سرعة ثمانين، فاضطر الجميع للتقيد بقدرة الأضعف. كان الهواء بارد ويصعب تحمل فتح النوافذ، والأرض صحراوية قاحلة تتطاير فيها الرمال، واستغرق ركابنا أكثر من ساعة ونصف، لقطع المسافة التي تقل عن 90 كلم. ولما وصلنا للشقة الجيدة التي استأجرها لنا رمضان، بدأنا في الاستراحة من الوعاء، وذكرت الأحبة بالمعانة التي لقيها العم زيد، في رحلته للفيوم قبل نحو مائة وثلثين سنة، فتبسم أبي رحمه الله وأثنى على ذاكرتي واعتباري، إلا أنني لاحظت شدة الأعياء عليه، وتألّمه من جنبه الأيمن وتوجه للفراش ضحى على غير عادته. اجتمعت عنده الوالدة والدادة، واقترحوا استدعاء طبيب له، لكنه رفض وقال انه تحسس

طفيف من دخان السيارة، وقد كان منذ مقتبل عمره يعاني من آلام في الرئة، وبخاصة عند احتكاكه بغبار الكتب والمطابع وطلع النباتات. أمضينا أربعة أيام في تلك البلدة الزراعية، ذات الإمكانيات المحدودة (آنذاك) وكانت الكهرباء كثيرة الانقطاع، فيحضرون لنا كلوبات بفتيل على الكيروسين. لما ذهبنا للبحيرة لم أرى أي أثر للكنوز التي تتوء العصابة بمفاتيحها، بل عشش صغيرة من الأغصان الجافة على ضفة الماء، جلسنا في احداها لاتقاء البرد. وفجأة ظهر لنا زمرة من الرجال السمر، كانوا وسط الماء بعيداً، وخرجوا يمشون عراة متجهين نحو عشة مجاورة يبدو ان فيها ملابسهم، وسارعت الخادمة لإغماض أعين الأختين عن ذلك المنظر البشع، وهروا السائق يحضر السيارة قريبا من مكاننا، وآخر يصيح على أولئك السابحين الذين لم يكثرثوا لصراخه. توجهوا بنا نحو مكان على الضفة الأخرى للبحيرة العملاقة، بدا لي على بعد مبنى كأنه ثكنة عسكرية، ولما دخلناه لاحظت ان اسمه "الأوبيرج" وهو فندق غير كبير، لكنه نظيف ومرتب وبه خدم عليهم ملابس مزركشة وطرابيش. جلسنا في مطعمه وكان النادل مهذب وكذلك أعوانه، ولما انتهينا من الطعام الأوروبي قالت الدادة انهم يريدون الحلوى، لكنني همست للسائق ان المتبقي لدي يكفي فقط لإكرامية العمال، فكلم الجرسون النوبي الواقف يتسمعنا، بقوله ان معه ما يكفي لبقشيش يرضيهم. وقبل ان نغادر جاء النادل وكرر الترحيب بنا، وسأل رمضان عنا فقال له إنهم من امراء السعودية، فتهللت أساريه وقال أنه لاحظ الكرم. ثم سألني اذا كنت أعرف ابن سعود، فأكدت ذلك رغم ان والدي كان يحذر من تعريف أنفسنا للغرباء، فقد كانت حرب اليمن بين مصر والمملكة على أشدها، لذا فقد اصطحبنا نحو باحة خارجية (تيراس) قال ان تشرشل قابل فيها الملك عبدالعزيز قبل عشرين سنة. ثم توجهت معه للدخل بعيداً عن ساحل البحيرة، حيث شاهدت صور معلقة على حائط أحد الممرات، يبدو فيها الملك ورئيس وزراء بريطانيا، يتناولون الطعام وفي بعضها بعض الأمراء منهم أحد إخوته، وحشد من مستشاري الملك من الشام ومصر وليبيا. لما أخبرت والدي عن ذلك أوضح أنه يعرف عنها، وهو قد زار مصر بعدها بأقل من خمس سنوات، لكنه لم يزر الفيوم قبل ذلك، لكنه قص على بعض روايات عمه زيد عنها. كانت صحته قد انتعشت بعد أن حضر عنده مداوي شعبي، وجعله يستنشق دخان بعض الأعشاب، التي عاونته (بفضل الله) على طرد ما تراكم في رئته من دخان المركبة، لكنه قرر البقاء في المنزل لتفادي الهواء البارد المؤذي. لقد جربت مداوي آخر فيومي، حيث كانت سبابة يمناي تؤلمني منذ أسابيع، وتُعطل كتابة فروضي المدرسية، ورغم دواء التراميسين الذي وصفه لي طبيب الأطفال الحاذق، ممدوح جبر والتي نراجع عيادته في باب اللوق مع إخوتي، فإن الداحوس استمر على حاله ثم تزايد. لكن المداوي أحضر أوراق شجر الخروع، ولفها على عجينة ساخنة من مواد كريهة، وامرني بالعودة له في المساء ولما فكها، لاحظت تناقص الالتهاب وأعاد تجديد العلاج، وفي اليوم التالي كان الإصبع قد بداء يتعافى بحول الله ثم زال البأس. اقترح الجرداوي الذهاب للسينما، ولم يكن رحمه الله يسمح لي وأخي بالذهاب إليها إلا لماما، أما الأخوات فلم يذهبن لها قط، وقد شرح

للوالد أنه طيلة سنين عمله معنا لم يوصي بذلك، لكن بلدته فيها صالة يعرف مديرها، وتعرض الآن فيلم عن عنثرة وبطولاته فوافق على مضمض. رأيت في الفيلم القديم المتقطع امرأة يقال لها كوكا، تمثل انها عبلة وترقص وتغني، وكنت لا أفضل سوى أفلام "جيمس بوند" العالمية الرائجة آنذاك. ورغم أنهم وضعونا في كبينة منعزلة، إلا ان السقف المشقوق يظهر شمس العصر، كما يسود المكان صخب وضجيج، وتعليقات الجهلاء البذيئة على المناظر، وسحب الدخان كانت كافية لتطلب الدادة المغادرة الفورية، بخاصة ان البنات صغار وقد دخلهن الخوف مما يرون ويسمعون. وأنوه ان والدتي خلال السنوات الطوال في مصر لم تدخل قط دار سينما، ولما ألحت عليها إحدى الخادمت سألته عما فيها، وعندما عرفت أنه تمثيل وغناء ورقص، رفضت ذلك لأنه مما يميم القلب ويحث على الخلائق الرديئة. ولما اقترحت أخرى عليها زيارة الأهرامات، استفسرت عما فيها ولما قالت انها قبر فرعون، نهرتها بشدة لأنه محرم عليها زيارة قبر والدها، فكيف تزور من قال إنه الرب الأعلى. عدنا لدارنا في سيارتين فقط، واستغنيانا عن تلك التي سمتها إحداهن "العربية القرشانة" بكثير من روايات والدي عن عمه زيد، ورحلته في سالف العصر والزمان لتلك البلدة الأثرية، التي علمت أثناء وجودي فيها عدم صحة "ألف يوم" كمصدر لإسمها، بل علمت من أحد المدرسين ان ذلك اسم فرعوني قديم، قام العرب بتبسيطه وتقبله كافة المصريين. ولما أبدت إحدى الأخوات تذمرها من وعناء رحلة العودة، شرحت لها ان المشوار لا يكاد يتجاوز الساعة إلا بقليل، فكيف بالعم زيد الذي أمضى خمسين ساعة على ظهر ناقه، حتى يعود للقاهرة في عناء وخوف، فأيد قولي الوالد رحمه الله وأثنى على تذكري لما سبق ان سمعته عن تلك الرحلة.

بعد هذا الاستطراد الزمني في نفس المكان، أرى ان نتوقف عند نهاية الفصل، وعلى ان نستأنف السرد في الجزء التالي، الذي سيكون بعون الله تمهيد لمرحلة تواجد صاحب السيرة، وما سمعه من قرابته وجيرانه وذوي العلاقة به.